

الدكتور محمد رجب البيومي

من احاديث الصداقة عند ابي حيان

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

الاستاذ بكلية اللغة العربية بالمنصورة

* * *

حديث الصداقة يمس أرق الاوتار في القلوب ، ولكل انسان هشاشة اليه وارتياح ، اذ ان الصداقة تجربة عامة باشرها كل فرد ولو في بعض فترات حياته ، ومن كتبوا الصحائف في نبذ الصداقة وايثار الوحدة لا بد انهم جربوا — لسوء حظهم — صداقات مجدبة لافحة فأنحوا باللائمة على الصداقة والاصدقاء ، ولكن ذلك لا يمنع ان تكون الصداقة حاجة ضرورية لدى الناس ، فهي مدعاة انس ، وباب مسرة وانشراح ، وكم من رجل كدره الهم ، وعبست في وجهه الحياة حتى صارت اضيق من حلقة الخاتم في عينه ، ثم سعد بمؤانسة صديق عاقل ، فشكا اليه شكاية المتأوه الملتاع ، فوجد عنده من مجاذبات الانس ، وملاطفات القول ، ما اعاده الى صفوه ، واسعده بتنفيس مريح ، وبأمل منعش ، فعاد من مجلسه هادىء النفس ، قوي الاحتمال .

اجل ، ان حديث الصداقة يمس اوتار القلوب دون ريب ، وهو حديث مؤنس ناضر ، اذا صدر عن قلب كبير ، وعقل نافذ ، وصاحب حديث اليوم هو ابو سليمان المنطقي العالم المتأمل الفيلسوف ، وهو واحد الآحاد في مجال التحليل العقلي والنظر الفلسفي بين معاصريه ، شهد له بذلك أولو البصر والحكم من كبار المتضلعين ، وهي شهادة متعددة المصادر ، مختلفة الاشخاص ، وليست مجاملة فردية يوجهها صديق لصديق ، وما بين ايدينا الآن من آثاره الحكيمة ، وآرائه الجدلية المدونة بنوع خاص في اكثر ما كتب ابو حيان التوحيدي مما يشهد بعمق الرجل ، وبعد غوره ، وغوصه الملح على ادق المعاني ، وتفسير المستوعب لأعقد الظواهر .

وفي رجال الفكر من عرفهم الناس عن طريق تلاميذهم اكثر مما عرفوهم ، مما بقي من مؤلفاتهم فاحتلوا بذلك مكانة علمية مرموقة ، فأبو الفلاسفة سقراط لم تعرف افكاره الخلقية ومراميه الفلسفية ، الا من كتب تلميذه افلاطون ، والنظام النظار المتكلم البحاثة لم تتعارف آراؤه الا عن طريق تلميذه الجاحظ ، وكذلك ابو سليمان المنطقي قد متعه الله بأبي حيان التوحيدي ، ولأبي حيان ولع بتسجيل الحوار العلمي ، وتدوين النقاش الفكري ، وقد وجد في مجلس ابي سليمان طلبته المنشودة فجعل يسجل ما يقدر على تسجيله من افكاره ، ومنها الدقيق الذي لا يفهم الا بعد عسر ومشقة كبعض ما حكاه عنه في كتابي المقابسات والهوامل والشوامل ومنها السهل الذي يقرب سريعا من ذهن قارئه كبعض ما نقله في كتابي الامتاع والمؤانسة والصداقة والصديق .

ومن حسن حظ القارىء مع ابي سليمان انه تحدث عن الصداقة عمليا ونظريا ، تحدث عنها عمليا حين تكلم عن تجربته الخاصة فيها مع قاض فاضل من قضاة عصره فشرح كيف تتحد المشارب وتتفق الميول بين الصديقين شرحا لا يتأتى الا من باقعة مقتدر ذي احاسيس تدق وتدق ثم تشف وترق ، وكلام الفيلسوف المنطقي عن صاحبه ترجمة امينة لخواطر عزيزة تشبه خواطر الاوفياء من ذوي النبالة السرية ، ونحن نسعد بقراءتها اذ نجد فيها صدى لنفوسنا ، بل نجد فيها ما نحسه دون ان نقدر على التعبير عنه كما عبر ابو سليمان ، هذا بعض الالماع الى ما جاء عن حديثه العملي عن الصداقة ، اما حديثه النظري فما اكثر ما تردد في كتب ابي حيان ، وهو حديث عميق ذو ابعاد ، ولا بد من الالمام بذرو منه بعد ان نتحدث عن تجربته العملية الرائعة مع القاضي الكبير ابن سيار لنرى كيف تتجاذب الارواح وتتعانق القلوب .

قال ابو حيان التوحيدي لاستاذه ابي سليمان المنطقي(1) (بتصرف لا يطفىء بريق الاصل) :

— اني ارى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومواتاة خلقية ، فمن اين هذا وكيف ؟

فرد ابو سليمان يقول : يا بني اختلطت ثقتي به بثقته بي ، فاستفدنا طمأنينة وسكونا ، لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع مشاكلة عجيبة ، حتى اننا نلتقي كثيرا في الارادات والاختيارات والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الاوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه ، او كأنني هو فيها ، او هو انا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها رآها كما رأيتها .

قال ابو حيان : كيف يصح هذا ؟ وأنت مطالبك في الفلسفة ، وصورك مأخوذة من الحكمة ، وجعبتك مجموعة من الحقائق ، وخوضك في الغوامض والدقائق ، وذلك رجل في عداد القضاة ، وجلة الحكام ، واصحاب القلانس ، ومخاضه الظاهر الذي عليه الجمهور ، ومأخذه مما عليه السواد الاعظم ؟

والاعتراض وارد لا محالة ، ولكن مثل ابي سليمان لا يعجز عن رده ، فقد اندفع يقول :

هذا هو الذي انفردنا عنه ، بعد ان ازدوجنا عليه ، والاصل ابدا مخالف للفرع ، لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل .

فابتدر ابو حيان يقول : هذا والله طريف ، ومما يزيد من طرافته انك من سجستان وهو من الصيمرة !

فقال ابو سليمان : الامكنة في الفلك(٢) اشد تضاما من الخاتم في اصبعك ، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده في المسافة الارضية من بلد الى بلد ، بفراسخ تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تخترق ؟

اطرق ابو حيان قليلا ثم سأل : وهل تجد عليه في شيء ؟ وهل يجد عليك في شيء ؟

فقال الاستاذ : وجدي به في الاول ، قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني ، على انه يكتفي فيما خالف هو اي باللمحة الضئيلة ، واكتفي انا ايضا منه في مثل ذلك بالاشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض عن طريق الكناية كأننا نتحدث عن قوم آخرين (ليلتفت القارىء الى هذه الروائع العجيبة) ويكون في ذلك لنا مقنع ، واليه مفزع ، وقلما نجتمع الا ويحدثني عني بأسرار ، ما سافرت من ضميري الى شفتي ، ولا ندت من صدري الى لفظي ، وذلك للصفاء الذي نتساهمه ، والوفاء الذي نتقاسمه ، والباطن الذي نتفق عليه والظاهر الذي نرجع اليه ، والاصل الذي رسوخنا فيه ، والفرع الذي تشبثنا به ، والله ما يسرني بصداقته حمر النعم ، واذا كنت اعشق الحياة لاني بها احيا ، فكذلك اعشق كل ما وصل الحياة بالحياة ، وجنى لي ثمرتها ، وجلب الي روحها ، وخلط بي طيبها وحلاوتها .

هـذا تصوير دقيق لتجربة انسانية عاشها عالم فيلسوف فرصد ملامحها الظاهرة ، ونوازعها الخافية في ايجاز لامـح ومنطق دال ، وحوار يغني عـن التفسير والتعقيب .

فاذا تركنا هذه التجربة العملية على نفاسة ما تحتويه من رصيد ثمين ، الى آراء ابي سليمان النظرية في الصداقة والاصدقاء ، فاننا نجد هذه الآراء الفكرية هي التي ساعدت على نجاح التجربة العملية ، حيث كان يجل الصداقة فكريا ، ويرى لها ثقلها الراجح في ميزان الحياة ، حتى اذا اسعفته الايام بمن يأنس بمؤاخاته ، ويستروح بمصافاته مد عليه اسبغ الظلال من مودته ، فعاشا معا في نسيم يتراوح باللطف ، وتحت غصون تتساقط باشهى الثمار .

والحق ان ابا حيان التوحيدي كان التلميذ الحصيف الذي استطاع ان يمتاح من بئر ابي سليمان المنطقي اعذب النمير ، واصفى الزلال ، وكأني به وقد لمس جلال الصداقة بين الرجلين ، فلم يقصر في اهتبال الفرصة فأخذ يستدرج استاذه الى احاديث خلفية تفسر خوافي الصداقة ، وطوايا المودة ، فكان بأسئلته المتشعبة كمن يلقي الشبكة في محيط زاخر ، يعج بالمستطاب من مشتهيات الصيد ، وابو حيان كان على غزارة ادبه وعظيم فضله ممن فشلوا في مضمار الصداقة والاصدقاء ، اذ لم تسمح له الايام بمودة ينعم باخائها المستطاب ، لذلك ارى ان اسئلته لاستاذه الكبير تعبر عن شوق ظامىء الى صداقة تسعف ، ومودة تسعد ، فهـي صراخ نفس تتعذب بأوصابها ، في نـار العزلة والايحاش ، واننا لننقل طرفا من اسئلة التلميذ ، واجوبة الاستاذ ، تتناثر في صفحات متباعدة من مؤلفات التوحيدي ، ولكننا نقارب بينهما بما يوضح الفكرة الخلقية في الصداقة الانسانية ، على ان نسلسل ذلك في حوار متتابع ، وان لم يكن كذلك فيما تفرق من آثار ابي حيان فلا علينا اذا جمعنا حبات العقد المتناثرة في سلك منتظم ، فذلك اتم لجماله وابهى لمرآه .

ــ سأل ابن حيان استاذه ، هـل يلاث مـا بين الصديقين ؟ وهل يفضيان الى هجر ؟ وهل يفزعان الى عتب ؟

فقال الاستاذ :

ما دامت الصداقة قاصرة عن درجتها القاصية ، فقد يعرض هذا كله بينهما ، لكنهما يرجعان فيه الى اسس المودة ، والى شرائط المروءة ، والى ما لا يهتك حق الفتوة ، اما الهجر ان حدث فهو جميل غير مستقر ، لحوافز الشوق الى المعهود ، ومحركات النفس الى التلاقي ، واما العتب فربما اصلح ورم الفائت ، وشعب الصدع ، والاكثار منه ربما عرض بالحقد ، واحدث نوعا من النبو ، وقد قيل : وما صافيت من لا تعاتبه وربما كان العود الى الصفاء بعد هذا الكدر فوق ما عهدناه في الاول(٣) .

قال ابو حيان : سمع ابن عطاء رجلا يقول : أنا في طلب صديق منذ ثلاثين عاما فلم اجده ، فقال عطاء : لعلك في طلب صديق تأخذ منه شيئا ، ولو طلبت صديقا تعطيه شيئا لوجدت فما رايك في هذا القول ؟

قال ابو سليمان متعجلا :

هذا كلام ظالم ، فالصديق لا يراد ليؤخذ منه شيء ، او ليعطي شيئا ، ولكن ليسكن اليه ، وليعتمد عليـه ويستأنس به ويستفاد منه ، ويستشار في الملم ، وينهض في المهم ، ويتزين به اذا حضر ، ويتشوق اليه اذا سافر والاخذ والعطاء في عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم بلا حسد وبلا نكد ، ولا صد ولا حد ، ولا كلوح ولا تعريض بنكير ، ولا فكرة في تكدير(٤) .

فسأل ابو حيان : ما الفرق بين الصداقة والعلاقة اذن ؟ فرد ابو سليمان يقول :

الصداقة اذهب في مسالك العقل ، وادخل في باب المروءة ، وابعد من نوازي الشهوة ، وانزه عن آثار الطبيعة واشبه بذوي الشيب والكهولة ، وارمى الى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وابعد عـن عوارض الغرارة والحداثة ، اما العلاقة فهي مـن قبيل العشق والمحبة والكلف والتهيم والهوى والصبابة ، والترافق والتشاجي ، وهذه كلها امراض او كالامراض بشركة النفس الضعيفة ، والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص ولهذا تسرع هذه الاعراض الى الشباب ، وتنال منهم ، وتملكهم ، وتحول بينهم وبين انوار العقول ، وآراء النفوس وفضائل الاخلاق ، وفوائد التجارب ، ولهذا واشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج ، والطريق الوسط(٥) .

قال ابو حيان : فهل لك ان تفسر قول ارسطو : صديقك هو انت الا انه بالشخص غيرك ؟

فقال الاستاذ : هذا رجل دقيق الكلام ، بعيد المرام ، صحيح المعاني ، وقد اشار بكلمته هذه الى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها ، الا ترى ان لهذه الموافقة اولا منه يبتدئانها ، كذلك لها آخر ينتهيان اليه ، واول هذه الموافقة توحد ، وآخرها وحدة ، وكما ان الانسان واحد بما هو انسان ، فكذلك يصير بصديقه واحدا بما هو صديق ، لان العادتين تصيران واحدة ، والارادتين تكونان ارادة واحدة(٦) .

قال ابو حيان : ذلك بعيد ! !

فاحتد ابو سليمان يقول : ليس يبعد هذا الا انكم لم تروا صديقا لصديق ، ولا كنتم اصدقاء على التحقيق ، بل انتم معارف ، يجمعكم الجنس ، وينظمكم النوع ، ويؤلفكم ذلك البلد او الجوار او النسب ، ثم انتم في ذلك الذي اجتمعتم عليه ، على غاية الافتراق ، للحسد الذي يدب بينكم ، والتنافس الذي يقطع علائقكم ، فلـو ثبتم على الصراط المستقيم ، وعلقتم جل العقل المتين ، واعتصمتم بالعروة الوثقى من الهدى والدين ، كنتم كنفس واحدة في كل حال ، ذلت او صعبت ، تجمعت او تشعبت(٧) ، تعرفت او تنكرت ! ومضى الاستاذ في تحليل لا نستطيع التعقيب عليه اذ من الجائز ان نضل مرماه ، ومن الذي يزعم لنفسه انه يقف على دقائق ابي سليمان الا ان يكون ذا وهم بعيد .

لقد فطن الاستاذ الى لباب الصداقة حين سعد بمودة التاجي ابن سيار ، فوقع الطير على شكله ، وانجذب الشبيه الى الشبيه ، وقد أوحت له هذه الصداقة من لطائف الخواطر ، ورقيق المشاعر ما كاد به يصبح شاعرا يحلق ، لا منطقيا يغوص وقد عنونت هذا المقال بأنه من احاديث ابي حيان ، وربما كان الاحرى ان يعنون بأنه من احاديث ابي سليمان ، ولكني اعلم مذهب التوحيدي في الكتابة وطريقته في تشقيق المعاني ، وتسلسل الحوار ، فرايته يفوز في هذا المضمار بجانب كبير ، على ان مما يرضي استاذه ان يكون التلميذ الامين موضع الحظوة والتبجيل .

---

(١) ــ الصداقة والصديق ص ٢ بتحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .
(٢) ــ هكذا يعتقد ابو سليمان آراء فلكية ضاعت منزلتها الآن !
(٣) ــ الصداقة والصديق ص ١٠١ .
(٤) ــ الصداقة والصديق ص ٥٤ .
(٥) ــ ص ١٠٣ .
(٦) ــ ص ٥٥ .
(٧) ــ ص ٥٦ .

محمد رجب البيومي

المنصورة
شارع النصر المتفرع من شارع الجلاء

عدنان مردم.. شاعـرا

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

* * *

عرفت عدنان مردم منذ سنين طوال ، من دواوينه الثلاثة التي صدرت له : نجوى (١٩٥٦ — دار المعارف بالقاهرة) — صفحة ذكرى (١٩٦١ — عن الدار نفسها) — عبير من دمشق (١٩٧٠ — بيروت — عويدات) .

وقرات له مسرحياته الشعرية بعد ذلك : غادة افاميا (١٩٦٧ — بيروت) — العباسية (١٩٦٨) — الملكة زنوبيا (١٩٦٩) — الحلاج (١٩٧١) — رابعة العدوية (١٩٧٢) — مصرع غرناطة (١٩٧٣) — فلسطين الثائرة (١٩٧٤) — فاجعة ميرلنغ (١٩٧٥) — ديوجين الحكيم (١٩٧٧) — وكلها من طبع بيروت .

وبين يدي ديوانه الاخير « نفحات شامية » الذي صدر في بيروت عام ١٩٧٩ ، مضمخا بعبير الحب للشام ، ولمدينته العريقة دمشق ، ذات التاريخ الطويل الحافل .

وعدنان مردم بك من اسرة المردمين ذات الماضي العريق في التاريخ والادب واللغة والشعر وعلوم الدين .
وبحسبنا والده خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق من قبل ، وصاحب الآثار الادبية الخالدة المشهورة ، والذي يكتب عنه صديق لنا رسالة للدكتوراه ، وهـو « خير الدين كم الماز » .

وعدنان مردم من طبقة جيل الرواد في الادب السوري الحديث من امثال : ابو ريشه ، وامجد الطرابلسي ، وانور العطار ، وزكي محاسني ، وسواهم . وهـو شوقي النزعة ، ينتمي الى مدرسة البعث الجديد ، ويشبه عزيز اباظه في الشعر المصري المعاصر ، وفي انتماءاته الفنية والادبية ، وموسيقاه الحلوة ، وخياله التصويري البديع ، شهود له على رفعة محله في الشعر ، وتميزه فيه .

وسأكتفي في هذه الكلمة بالحديث عن ديوانه الاخير « نفحات شامية » الذي يمثل الكلاسيكية الجديدة خير تمثيل بكل خصائصها وسماتها الفنية والفكرية .

« نفحات شامية » يمثل شاعرنا الكبير عدنان مردم بك خير تمثيل ، فهو يحمل روحه الوطنية المتأججة ، ويحمل طابعه الشعري البديع الجديد ، ويحمل موهبته التصويرية الرفيعة الاصيلة ، ويحمل منهجه في نظم القصيد وموسيقاه ، ويحمل قبل كل شيء فكره وثقافته وطابع فهمه للحياة .

وابواب الديوان الكبرى هي : الوصف والطبيعة — صور فنية — المعذبون في الارض — شيء من القلب — تأملات — صور من التاريخ .

١ — فالوصف والطبيعة تسع قصائد جميلة مؤثرة : دمشق التاريخ — الليـل في دمشق القديمة — سـوق الحميدية — برك المـاء في بيوت دمشق — قاسيون في الثلج — وصف ليالي الحسوم النارجيلة — القريـة في الليل — وصف الجفاف والمحل .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد لنتعرف اليها والى الشاعر ، ولتكـن قصيدته « الليل في دمشق القديمة » بأبياتها الثلاثين ، وبموسيقاه الحلوة التي ترجع الى بحر الخفيف ، وبقافيتها الدالية الممدودة ، وبخصائصا الفنية المتميزة .

القصيدة تدل على ملكة الشاعر الرفيعة في التصوير والوصف والخيال ، ويكاد الشاعر يمثل لنا الليل في رهبته وسطوته في دمشق القديمة اروع تمثيل . ودمشق القديمة قد تختلف عن الجديدة في هبوط الليل عليها ، فلا شك ان لقدمها واطلالها وحاراتها وشوارعها الضيقة ، ولاهلها المكافحين اثرا متميزا بالليل ، ومن منا لا يقف مذهولا امام روعة الليل في حي الحسين بالقاهرة ، وهو الحي القاهري الفاطمي القديم ، الذي يأخذ بالليل زينته وجماله وبهاءه كانه عروس تتزين في ليلة زفاف ، مما لا نجد شبيهه في ليل القاهرة الجديدة ، من احياء الزمالك او جاردن سيتي ، او مصر الجديدة او مدينة المهندسين مثلا .

والشاعر يبدأ قصيدته بوصف الظلام ، الذي يلقيه الليل على الكون رهيبا ذا سورة وسلطان :

عصف الليل في الفضاء البعيد بغواش ملء البسيطة سود
وترامى في شاسع كعبـاب تترامى اطباقه عـن وعيـد
وقتام الظلام في كـل افـق يتـراءى (كبيرق) معقـود
نشر الرعب في النفوس فجاشت خـوف رعـب اضالع كبنود

وهو هنا يمثل رهبة الليل وسطوته ، وحلوله على الكون ، وكأنـه البحر اللجي تثـور امواجه بوعيدها وتهديدها . وسواد الظلام يبدو في كل افق ظاهرا مرفوعا ، وكأنه العلم المرفوع والراية المعقودة .

ثم يعود الشاعر الى دمشق التي لا تهرم ابدا ، ولا تعرف في الليل الرهيب غير الوداعة والسكون والمهادنة .

واستكانت دمشق تحـت جناح لظـلام علـى الورى ممـدود
نعمـت دونـه دمشـق بفـيء من ظلال ، واستسلمت لهجود
من رآها في غمرة حين القت بذراع علـى التراب ، وجيد
خالها الـرود اطبقت بجفـون لمنـام علـى سراب الوعـود

الى ان يقول :

وتـراءت دمشق خلـف نقـاب مـن جـلال لغابر مـن جلود
جثمـت كالقضاء مائـم ريـب وهـي ترنـو بمقلـة لبعيـد

فدمشق تستسلم للسكون في الليل ، وتنام مـلء

جفونها ، كأنها الغادة الهيفاء ، تستسلم للنوم في سراب الوعود .

وكنت اظن ان الليل في دمشق القديمة يبعث فيها الحياة والحركة والنشاط ، كما نرى في حي الحسين ، او حي السيدة مثلا في القاهرة ، ولكن الامر هنا بالعكس كما يصوره الشاعر الكبير .

ويستمر الشاعر في وصف الليل في دمشق القديمة ، فيصفه بالطرافة ، ويصفها بالصمت المطبق ، حيث يقول :

تجد الليل في دمشق طريفا   يبهر العين بالطريف الجديد
ويطول الصمت العميق ويحلو   بالاماني من طارف وتليد
تجد الصمت ضاربا بجران   دون ليل اطباقه من حديد

ثم يعود الى دمشق وتاريخها التليد الحافل وكفاح ابنائها على طول العصور فيقول فيما يقول :

ودمشق التاريخ همس نشيد   عبقري على شفاه الخلود
ذكريات من عبد شمس اراها   بظنوني وخاطري ونشيدي
سطعت كاليقين فهي ضياء   لنفوس حيرى وطرف جحود
واراها تلذ في كل سمع   كلحون علوية الترديد
يا بلادي وما ترابك عندي   برخيص ولم يكن بزهيد
طاب عندي (كالبيت) طهرا وطابت   ذكريات عزيزة من جدود

وهنا ننوه بأمرين : موسيقى الشاعر الرائعة ، وملكته التصويرية الرفيعة ، ثم بطبعه الشعري الجميل وموهبته الاصيلة في نظم القصيد ، ونجد هنا قاموس الشاعر اللغوي ، هذا القاموس الذي ينم عن اعتداد بالتراث ورجوع اليه ، واعتزاز به ، وعن ثقافته اللغوية الواسعة ، واشير هنا الى ان المقطع الاخير في هذه القصيدة ، قد صدر به الشاعر ديوانه ، تحية لدمشق ولتاريخها الطويل العريق . وقصائد هذا الباب كله تعود الى بحر الكامل ، والخفيف والرمل والمتقارب .

٢ — وباب الصور الفنية يشتمل على ست قصائد هي : راقصة آه يا زين — المتحلقون حول النار — ثور السانية او الساقية — وصف هرة — مدرب الحمام — شارب النارجيلة .

ولنخص بالحديث هنا قصيدته « شارب النارجيلة » التي تعود الى بحر الوافر ، والتي يصف فيها سحب الدخان ، التي تخرج من فم شارب النارجيلة ، ويصف ما يعتريه من آلام وعذاب وادواء . ثم يصف طرحها في ركن من الدار ، ويصف رقة زجاجها وصفاءه وعزتها عند صاحبها ، ويصف القوم الذين يجلسون اليها للشراب .

يقول في مطلع هذه القصيدة :

اطال يعب من سؤر الندامى   لظى ويمجها سما زؤاما

ثم يقول :

اعذبا عب شاربها وشهدا   ام الاسقام يكرعها لماما
اطال عذابه بيديه لما   عن الاصباح من عنت تعامى

ويقول فيها :

ثوت (نرجيلة) في عقر ركن   وقرت كالاذى سكن العظاما
مطارفها الزجاج صفت وراقت   كما صفت المدامع من يتامى
تكاد لرقة ولفرط صقل   تسيل كغرب سارية ترامى

يريد كماء سحابة ممطرة يهطل .

وما ينفك شاربها جفيا   كان بها يرى بدرا تماما

الى آخر هذا الوصف العميق الجميل ، ثم يسترسل الى شاربيها فيقول في وصفهم :

ترى سمارها رقوا وراحوا   بحلبتها على ضغن كراما
يطيلون الحديث بلا عتاب   ويخفون العداوة والخصاما
رضوا بلدون من عمر ذليل   وعاشوا دهرهم ابدا نياما

واذا عدنا الى قصيدته « النارجيلة » في باب الوصف والطبيعة ، التي تعود الى مجزوء بحر الكامل ، والتي مطلعها :

تاج « لها فوق الجبين » يذكو على كـر السنين

ويقول فيها :

ضمت من البلور ثوبا   سال من هيف ولين
شفت طرائق نسجه   كاشمة الفلق المبين
بلورها من رقة   همس الوساوس والظنون
والماء في احضانها   صخب ، وطورا مستكين
يتلو اقاصيص الهوى   ويقصها للسامعين
تلقاه يسهب تارة   وتراه يوجز من شجون
هو واللظى متجاوران   معا ءلى كر السنين
ضمتهما « نرجيلة »   ضم المتيم باليمين
خرطومها عبق الشذا   للطامعين الحالمين

ثم يتحدث عن شاربيها حديثا عذبا رقيقا رفافا وقد استوقف نظري في البيت :

انفاسها حكت السالفة   رقة للظامئين

واظن فيه خطأ مطبعيا ، ولعله :

انفاسها حكت السلافة   رقة للظامئين

تجد هذه القصيدة اكثر عذوبة ، واروع تصويرا ، واحلى موسيقى ، وان كانت مضامين القصيدتين واحدة .

وقصائد الباب الثاني تعود الى بحر الكامل والمتقارب والوافر ، ويشبه الباب الثاني في — الاعتزاز بالقاموس اللغوي — ويشترك معه في الطبع الشعري الاصيل ، وفي قوة ملكة الوصف والتصوير ، حتى لنكاد تحسبنا اما ابن المعتز الشاعر الخليفة العباسي (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) من جديد .

٣ — والمعذبون في الارض عشر قصائد هي : بائع الصحف — الجزار — موزع البريد — الخباز — الفلاح — الحداد — الراعي — ضاربة الودع — مسحر رمضان — بائع الصبار .

ولنأخذ قصيدة من هذه القصائد ، ولتكن « الفلاح » ، لنتعرف عليها وعلى الشاعر من خلالها ، ولنرى كيف نظر شاعرنا الكبير الى هذا الرجل المسكين المعذب في الارض ، الذي عني بوصفه ، عنايته بوصف اشباهه من المعذبين في الارض في هذا الديوان ، وفي ديوانه الآخر ، عبير من دمشق .

يقول الشاعر الكبير في مطلع هـذه القصيدة التي نظمها من بحر الرمل :

صامت والحقل همس ونداء   وأجم والصبح نفح وعطاء

ثم يصف املاكه وكدحه وسقمه وكفاحه ، كما يصف بكوره وشقاءه بمحرائه وبالارض التـي يزرعها فيقول فيما يقول :

هـب يسعى ضاربا في شاسع   بيمـين هـي والصخر سـواء
ايقـظ المحراث مـن غفوتـه   فانبرى المحراث يحـدوه الرجاء
نخب الارض ، ولم تأل يـد   تنخب الارض لـه كيف يشاء
صـدره في صدرها لا يأتلى   عالقا مـا كر صبح او مساء
كمحبـين التقـى ثغراهما   بعـد ان بـرح بعـد وجفاء

ثم يصف الشاعر صبر الفلاح وهمته وعفته واسماله الباليات يقول :

تجـد الفلاح لـم تغرب لـه   همة مـا اشرقت يوما ذكـاء
لبس الصبر علـى المر ولـم   يعيه في العيش مـر او بلاء
هـو كالطير على السعي هوى   كلمـا يخفـق للفجـر لـواء
مـا على الفلاح لو رثت لـه   شملة ، والعرض في الطهر سماء

هذه القصيدة الرائعة التصوير لا حد لجمالها ولا لبلاغتها ولا لروعتها ، وفي آخرها يقول الشاعر :

يـده العجفاء سالت في الربى   رحمة ، فالنفح منهـا والعطاء
سقت الارض دما مـن جرحها   بسخـاء لا يدانيـه سخـاء
ونضت احلامها الغـر التـي   فاح منها الطيب وانهل الضياء

وقصائد هذا الباب ترجع الى بحر الخفيف الكامل والرمل وموسيقاها حلوة ، وتتميز هي والقوافي بالرنين الجهوري الصدى ، لا الهامس اللحن .

٤ — وباب « شيء من القلب » يحتوي على ست قصائد هي : الشباب — على الطريق — دون الرصيف — المغنى المقفر — غصص الذكرى — الذكريات الاليمة .

ولنأخذ من هذا الباب قصيدته « الشباب » لنرى ما تحتوي عليه مـن قيم فنية او فكرية ولتكون مادة لفهم الشاعر كذلك ... فماذا فيها ؟ وما هو المعنى الخفي بين حواشيها ؟

يقول الشاعر في مطلع قصيدته هذه ، التي نظمها من بحر الخفيف :

زيـف حلـم ، وعالم مسحور   ملـؤه التيه والرؤى والغرور
تجد الصعب دونه غـير صعب   وسـواء لديـه ليـل ونـور
ولياليـه فتنـة وعطـور   وصحاريـه جـدول مسحور

ثم يستمر في وصف الشباب فيقول :

الشباب الفينان فيـض نعيـم   فاح منه الشذى ، ورف العبير
يتراءى في اعـين الغير حلمـا   سرمديا ، لا ينتهـي ويفـور

ثم يقول في كفاح الشباب وجلاده للايام وسعيه في الارض :

والشباب الفينان جـذوة نـور   وانطلاق الـى العـلا ومسير
جعـل الارض حلبـة لصـراع   مستمر يصـول فيهـا المغـير
واتى النجم غازيا حين ضاقت   سبـل الارض دونـه والبحور
وتحدى الاقدار طيشا وجهـلا   وهـو ذر في الكائنات صغـير

ويتحدث عـن قصر ايام الشباب ومعجزاته كذلك فيقول :

ما الشباب الفينان غير شهاب   يتـراءى لفتـرة ويفـور
تتحلـى بـه الحيـاة ويحلـو   شظف العيش والشقاء المريـر
كيف اوفي الشباب حقا ومدحا   وهـو دنيـا وعالـم مسحور

والقصيدة تصويرية جميلة ، وفيها نغمة للحزن على ايام الشباب ، وفيهـا كذلك صور مـن كفاح الشباب ومعجزاته وعبقريته ، ولكنها تخلو مـن العنصر الذاتي المثير . والشاعر قلما يتحدث عـن نفسه في شعره الا عرضا ورمزا .

وقصائد هذا الباب مـن الخفيف والوافر والكامل والرمل . ومن قصائده الجميلة الرائعة العميقة قصيدته (غصص الذكرى) التي يذكر فيها ماضي وصال مشرق بالحب والحنين واللوعة وهـي قصيدة عالية الطبقة في الشاعرية . ويقول فيها الشاعر :

قدحت ذكراك في النفس لظاها   واعادت لوعـة طـال شجاها
جنـت مغناك ضحى اسالـه   عـن ليـال واد البين صباها
نشرت ذكـراك اياما لنـا   غالها ريـب العوادي وطواها
ليس في الذكرى التي نشتاقها   ما يسلي النفس او يشفي صداها

٥ — وفي التأملات ست قصائد كذلك : الشمس — السمكة السجينة في قفصها البلوري — عالـم القمر — وصف ليالي رمضان — ايتها الارض — النبع المنقطع — وتعود هذه القصائد الى بحر الكامل والرمل ... وهي قصائد رفافة دقيقة التصوير .

٦ — والباب الاخير في الديوان هو « صور مـن التاريخ » ، ويحتوي على ثمان قصائد هي : وقعة عين جالوت — جلنا — وهي زوجة الملك قطز التي حاربت معه المغول في عين جالوت وقتلت دونه لترد بنفسها عنه بسهم احد المغوليين فقضت شهيدة في ساحة الحرب — الحرب في الجولان — الدمار في القنيطرة — ابن زيدون — محنة بيروت — بيروت بعد عام من الفتنة — سقط تل الزعتر .

والقصائد من بحر الخفيف والوافر والكامل والبسيط الذي نظم منه قصيدة واحدة في الديوان هي قصيدة الحرب في الجولان .

وهذه القصائد يمتزج فيها وهج الفن بعبق الذكريات التاريخية الحافلة ، ولا نستطيع الحديث عنهـا لطول الدراسة ، ورغبة في الايجاز .

وبعد ، فماذا اقول عن شاعر بردى الكبير ، عدنان مردم بك ، هذا النغم الشجي ، الذي يعيش مع الالهام في ذرى الشام وذكرياته العبقات ، والذي يحول كل شيء في الحياة الى نغم جميل ساحر ، والذي امسك بعصا الشاعرية ، فتحولت في يده الى معجزة من معجزات الفن ، قل ان نجد مثلها عند الكثير من الشعراء .. ان ديوانه « نفحات شامية » وحي من السماء .

القاهرة   **محمد عبد المنعم خفاجي**

افلت سلمى

حب عذري جارف ، فحظ كحظ قيس من ليلى ، فوفاتها ، فهذا الرثاء الذي أوحته الى روحي المفجوعة بأفول توأمها :

محمد العدناني

*

الهي!قضى ابن الجنب، وانتحر الصبر ... وضـاق بأحزاني وآهاتي الصـدر

ودك مـن الاحلام طود ، أشاده ... فؤادي ، ليغفو تحت أدواحه اليسر

وهيض جناح الوجد ، وهو محلق ... فأهوى ، كما يهوي متى صرع الصقر

وباتت أماني خافقي وهـي جثـم ... على السفح،تهمي فوقها الادمع الحمر

يكفكفهـا منـه شغـاف مخضب ... بما في وتيني من دم ، دونه الجمر

وزلزلت الاعصاب من هول نكبة ... دهتني بمد من أسى ، ما له جزر

وطـار سباتي ، والسبات محرم ... علـى شاعر ماتت أمانيه الغـر

وأصبح مـن آمالـه في فدافـد ... حوادثها سـود ، وأوجهها غبـر

وأمسى الضحى في عينه مثل حالك ... من الليل ، يلقى عنوة دونه الستر

وبات لديـه بلبل الروض ناعبـا ... فـلا قوله شدو ، ولا لحنه سحر

ولا الزهر في أغصانه ينفـح الدنى ... أريجا ، به بين الورى عرف الزهر

وأضحت عبوسا بسمة الفجر عنده ... وكـم فتـن الدنيا ببسمته الفجر

وتـاه ببيـداء المصائـب فكـره ... وما تاه يوما مـن مصاب له فكر

وصار يعاف العطر من زهر الربى ... وقد كان يستهويه من زهرها العطر

وعشب المروج الخضر كان فراشه ... فأمست قتادا عنده بسطها الخضر

لقـد غربت سلمى ، وكان شروقها ... تغـار ذكاء منـه ، والانجم الزهر

لقـد أفلت سلمى ، وكان ضياؤها ... يري نجل صدري أين يقتنص البشر

لقد ضم سلمى في الضريح ترابه ... فمـا مسها حتى غدا رمسها التبر

وأصبحت الارض التي ووريت بهـا ... سماء ، بهـا في غفلة نـزل البدر

وطوف قلبـي حولها مثـل هالة ... وآهاته نـار ، وأدمعـه غـدر

. . . .

وان كتبـت بالحبر كـل قصائدي ... فقد صار يا سلمى نجيعي هو الحبر

رقمت بـه قانـي رثائي باكيـا ... وفوق المحيا من دموع الاسى نهر

لقـد حـز في نفسي رحيل مبكر ... لسلماي عن قلبي، وضعضعني الهجر

فمن كان مثـل الورد نفحا وعفة ... تحلى بتاج الحسن ، واختصر العمر

قضت في حزيران ، فأدبرت المنـى ... وولى هدوء البال ، وارتحل الطهر

ومات جناني بعد ان غص بالشجا ... وجاءته من دهر الاذى الضربة البكر

وقد قـف شعري حين وافى نعيها ... وما قف لي من قبل من نكبة شعر

وروضة آمالـي تعرت غصونها ، ... ومصدر وحيي الحسن والغصن النضر

وغـال الاسى فـذ الضلوع بنبله ... ودب الـى روحي وأعصابي الذعر

لقـد كنت أرجو أن يجدلني الردى ... وتسعدك الدنيـا ونائلها الغمـر

فجـاء حزيران لتقضي نحوسـه ... على أملي الباقي ، ويصرعك الدهر

فشهر حزيران هـو الشؤم كاسحا   أرتني جحيم الياس أرزاؤه الكثـر
وأنشب غـدرا في فؤادي نابـه   ولـم ينصرف الا وفي كبدي الظفر
وروعني يأساً ، وقوض مهجتـي   وأردى صوابي طبعه الشامس الوعر
وهدم مـا شادته آمـال قومنـا   وزلزل جيش العرب في بدئه النكر
وعاد عدانا – والمخازي تلفنا –   برأياتهم يشـدو لخفاقها النصـر
ولـم يكفه مـا أنتابنا في فنائـه   من الذل ، حتى انقض جحفله المجر
وحطـم قلبـي والأماني عندمـا   قضت فيه سلمى نحبها ، وانتهى الامر
فيارب أهب لي الصبر، واسمع تضرعي   وخذني الى سلمى ، فأنت لي الذخر
ولملم جراحـي بالتقائي بجنـة   مليكة خفاقي ، ومني لك الشكر

تشبثـت بالدنيـا لأحيـا متيمـا   بسلمى التي استغنى بأنفاسها الزهر
وزينها الحسن اليتيـم ، وبسمة   بها أحيت الوجاب ، وانقشع الضر
وقد بغصن البان يزري ، مهفهف   به هامت الابصار ، وافتتن الدهر
وخلق قويم في اطار مـن التقى   وقلب رحيـم بالورى كلهـم بـر
وصوت حسبنـاه أغاريـد بلبـل   ورأي سديد دون أحرفـه الـدر
وكـف اذا أعطت تدفـق جودها   وأضحى ازاء الجود كالجدول البحر
فأفنت يـد الاقدار فتان حسنها   وغيبها في الترب من دهرها الغدر
قضت نحبها سلمى ، فعاف حراءه   وحل بسفح الحزن والهلع الشعر
اذا عجـز فيـه تضـرج حسرة   فمن قبله مـن لوعة نزف الصدر
فلا كانت الدنيا ، ولا انصبت المنى ،   ولا كان لـي شعر يخلد أو نثـر
ولا غمرتنـي كالخضـارم بهجـة   ولا رد عنـي نكبة عزمي الوفر
ولا راح يفدينـي بحـب قلوبهـم   رفاق لهم من كـل مكرمة شطر
ولا ذاق طعم النوم طرفي ، ولا أوت   الى صدري النعمى ، ولا طال لي عمر
ولا رددت شعري هزارات روضة   ولا زان تاج الضاد والعرب لي ذكر
فيا رب ! انقذني مـن الياس قاتلا   فقد جـاء يدعوني الى حضنه القبر

لقد أوطنت سلمى فراديس عدنها   فبات ابن صدري لا يصان له سر
تفجر فيـه حزنه الجم ، فانبرى   يذيع علـى الدنيا صبابته الجهر
ولـم أستطع كبت العواطف لهبا   ولا كـم مذياع تغمـده الثغـر
ولا صـد وحـي جاءني متدفقـا   على الطرس مثل اليم في موجه هدر
ولا حبس دمـع بالدماء مخضب   كبحت به صبري الذي خانه الصبر
ولا حرق أوراقي ، وكسر يراعتي   فلا حرقها يجدي ، ولا ينفع الكسر
كتبت مآسي القلب يـوم وفاتهـا   فما فات مـن املاء الهامها سطر
وهبت لسلمى خافقي ، ولأمتـي   فهذي لها شطر ، وهذي لها شطر

أيـا جدثا ضـم الجمال متوجـا   بخلق عظيم ، وصفه ما له حصر
سأسقيك بالدمع السخين لترتوي   وتنبت فوق الصدر أعشابك الخضر
سيصبح شهدا ، تشتهي الزهر رشفه   اذا مس يوما تربها دمعي المـر
لئـن شتتت دنيـا النوائب شملنا   ففي جنـة المأوى سيجمعنا قصر
وننعـم في جنـات عـدن وطيبها   ونفلت مـن دنيـا نوائبها كثـر
ويرتع في أرجائها الحقـد والاذى   وينبت في جل الورى اللؤم والغدر
سيمتد مـا بيني وبينك يـا منى   جناني الى فردوسك المرتجى جسر
سيبنيه في دنيـاي قلبي براحـة   وعهد وفاء ، مـا لـه أبدا خفر
فصبرا الـى أن تنزل الروح وكنها   وتغمـر روحينا الهنـاءة والبشر

محمد العدناني

التطور اللغوي بين الجديد والخطأ

بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي

* * *

يؤمن المعنيون باللغة ان للغة حدودا ، وان لا سبيل الى ان نتجاوز تلك الحدود . ولا يعني جريا على هذه السنة ان نهدم اركانا ونتجاوز اصولا بحجة التطور . ولقد جرى الاوائل على شيء كثير من هذا على اختلاف بينهم في مبلغ التمسك بالاصول والانحراف عنها بعض شيء .

ولقد كان من تشدد المتقدمين انهم حجروا على المعربين الا يبتدعوا مجازا لم تعرفه العرب ، ومن اجل ذلك كانت الدعوة الى الحفاظ على « عمود الشعر » . وليس هذا « العمود » الا نمطا من الحفاظ على العربية الفصيحة محدودة باطار زمني معروف . غير ان الزمن فعل فعلته فلم يجد تشدد هؤلاء وجرى الناس يبتدعون ويجرون في عربية جديدة هي شيء من العربية الاسلامية . لقد منع الاصمعي مثلا ان يقال « زوجة » بالهاء جريا على قوله تعالى « امسك عليك زوجك » وقوله : « اسكن انت وزوجك الجنة » . غير ان المعربين تجاوزوا هذا من اجل ضرورات الحياة الجديدة ومن اجل ن تستقيم للشعر لغة خاصة فقال الفرزدق :

وان الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع الى أسد الشرى يستبيلها

وقال ذو الرحة :

أذو زوجة بالمصر ام ذو خصومة اراك لها في البصرة اليوم ثاويا

قلت : ان ضرورات الحياة دفعت ذوي اللسن واهل العلم ان يفوا بالحاجات المتجددة ، ومن هذا كانت حاجة الفقهاء الى ان تكون « زوجة » بالهاء مؤنثة لئلا تلتبس بـ « زوج » مذكرا ، وذلك لان للزوج في حالي التأنيث والتذكير حقوقا فقهية ينبني عليها معاملة خاصة .

ونستطيع ان نعد من هذا ما جد من المصطلح الاسلامي طوال القرن الاول الهجري ، ان الحاجة في المجتمع الاسلامي الجديد اقتضت ان يكون من الارث اللغوي مادة جديدة يعبر بها عن مدلولات جديدة ذات لون حضاري جديد . ولقد اضافت العلوم المختلفة طوال العصور المتعاقبة مادة لغوية احالت العربية الى لغة حضارة جديدة لا نعرفها في العصور المتقدمة .

ولقد جاء العصر الحديث والعربية متخلفة بتخلف ابنائها ، وان العرب في سائر ديارهم عيال على الجديد الوافد من الغرب في العلوم المختلفة . ومن هنا كانت الحاجة شديدة الى ان تكون لنا ادوات لغوية وافية بهذا الوافد الجديد . لقد كثر الجديد في الكلمة ، وابنيتها وفي الجملة ونظامها ، وفي الاساليب وحقائقها ومجازاتها . وقد وقف المعنيون بالتاريخ اللغوي وقفات مختلفة فمنهم من انكر الجديد وعده خروجا بل تجاوزا ، ومنهم من آمن بالتطور وعد هذا الجديد شيئا من ثمراته ، ومنهم من وقف وقفة بين اولئك وهؤلاء .

غير ان اهل الحفاظ على الاساليب القديمة القويمة قد شددوا النكير على الجديد اللغوي الوافد ، فكانت حملاتهم على « لغة الجرائد » في كل بلد من البلدان العربية .

وكأنهم اعادوا الى الاذهان ان « الصحفيين » اصل « التصحيف » اشارة الى مقولة قديمة هي « ان العلم لا يلتمس عند مصحف » . لقد كثرت المصنفات في اخطاء الكتاب هنا وهناك ، ولو انك اردت ان تعرف جماع في هذا لرأيت انها جميعها متشابهة بعضه يعتمد على بعض آخر .

ثم تجاوز الحد في ايامنا هذه فرأى المعنيون ان الخطأ كثير وان متن اللغة يوشك ان يأتي بنيانه من القواعد ، وان عربية معاصرة يتقرر وجودها كل يوم . ان بناء هذه اللغة الجديدة ليشتمل على اجزاء غريبة مادة ومعنى . ومن اجل ذلك كان على اهل العلم ممن يضطلعون بتصنيف المعجمات في « العربية الجديدة » وفي « اغلاطها الشائعة » ان يتجاوزوا الحد الذي تختلف فيه اللغة المعاصرة عن الاساليب القديمة ، وهذا يعني الا يقتصر على ان « المعيار » الصوابي هو الاساليب القديمة . ومن هنا كان عليهم ان يفطنوا الى :

١ — الابنية الجديدة

٢ — نظام الجملة العربية الجديدة

٣ — النحو الجديد .

سم هذا الجديد ما شئت ، قل : انه خطأ وانه لحن وانه كيت وكيت ولكن ينبغي ان تعلم ان لا سبيل الى دفعه . وانه شيء قليل او كثير من امارات هذه اللغة الجديدة ، وقد نجد ما يسعفنا على ان نوطن انفسنا على هذه الرطانة الجديدة ما نقرؤه عن اللغات في العالم ولا استثني منها اللغات الغربية المتقدمة .

ثم ماذا ؟

لقد اشرت في هذه المقدمة الى اللغة المكتوبة فهل

تظن اننا لا نحسن القراءة ولا نحسن الاداء . لقد غم علينا الامر فليس في طوقنا ان نخرج الاصوات العربية « مخرجا سريا » كما قال اهل البيان . لقد حسبنا « التلاوة » و « حسن الاداء » ضربا من « السماع » او قل من « الغناء » . لقد وطنا انفسنا على قبول ان لا بد للآية الكريمة ان تؤدى بنغم الصبا والحجاز وشيء آخر من الالحان والانغام . تعالى الله ان يكون « الترتيل » شيئا من هذا . ان « التجويد » احسان اخراج الاصوات على نحو ما يلتمس ان يكون من آلة المتحدث او الخطيب اجادة اخراج الكلمة في اصواتها وفي احكام رصف هذه الاصوات ببعضها ليتأتى من ذلك وحدة من الاصوات محببة مونقة وان يحسن المرتل والمتحدث والخطيب والذي يتلو آيا من الذكر او طرفا من الحديث ، الوقف والابتداء والفصل والوصل وكيف يصير الى الادغام وغيره . وهذه جملة امور لا يعرفها المعربون في القراءة الخاصة والتلاوة الخاصة والحديث الخاص بله سائر المتكلمين .

ولنعد الى اللغة الجديدة فماذا في لغة الاذاعات المسموعة والمرئية كل يوم ؟

انك لتسمع وترى المتحدث يقول :

في حديثه الى مراسلي الصحف صرح السيد الوزير ...

لقد سمعنا هذا مرارا حتى خيل الى كثير منا ان الاسلوب عربي مبين ، وان لا ضير على ان يعود الضمير على متأخر عنه .

وبحسبك ان تعلم ان الاساليب الجديدة قد وجدت سبيلها فيلغة الجلة من اهل الفضل ممن يتوقع ان يكونوا في منجاة من هذا الجديد الوافد . لقد وجدت ان احدا من اهل العلم ممن يوصفون بالالقاب الدينية المفخمة قال في معرض فتوى من فتاواه :

ان الاكثرية الساحقة من العلماء يرون ...

لم يعلم هذا العالم الفاضل بل المرجع الديني الكبير ان « الاكثرية الساحقة » هي نقل للعبارة الاعجمية :

La majorité écrasante

لم يفطن الى ان « الاكثرية » هذا المصدر الصناعي شيء جديد في العربية ، وان هذا « الموصوف » لا يمكن ان يوصف باسم الفاعل من « سحق » في العربية ولكنها الترجمة العاجلة التي تذفت بالاساليب الجديدة في العربية .

اقول في آخر هذه اللمحة العاجلة ان الامر يحفزنا الى ان نسجل اشتات هذه اللغة المعاصرة مؤرخين وجودها وظروفها لا ان نكتفي بالاشارة الى الغلط . ولو انك عمدت الى ضبط هذه الاساليب الجديدة لتوفر لك معجم جديد يتناول الدلالة الجديدة للكلم ثم المجاز الجديد ، وقد يتجاوز الامر هذا الحد فتصل الى الابنية الجديدة .

قد تعجب ان قلت لك : لقد قمت بهذا العمل فكان لي كتاب كبير آمل ان يتسع له الوقت لانصرف اليه فأنشره ليكون بين الناس وثيقة من الوثائق التي نعتمدها في ضبط « اللغة المعاصرة » .

قلت : ان من الجديد ما يتصل بالابنية ولا تعجلن علي فتستغرب هذا الامر لاني اقول لك ان طائفة من الجموع الجديدة لا تعرفها العربية . لقد حفلت اللغة المعاصرة بـ « النجاحات » و « النشاطات » و « النقاشات » و « الصراعات » وكثير غيرها . ثم ان هذا العدد ليزداد كل يوم ، وانك تسمع في الاذاعات العربية وتقرأ في الصحف اشياء كثيرة من هذا الجديد المترجم .

اقول : ان في العربية ما يعين على ان نقبل هذا الجديد وذلك ان « المصدر » الذي يتحول الى الاسم جاز جمعه ، ومن اجل ذلك قالوا : فتوح وفتوحات ، وخصومة وخصومات . الم يأت من قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان » ؟

وقد كانت حاجة العلوم الجديدة الى شيء من هذا الجديد فقالوا : « انفعالات » و « فعاليات » من مفردات علم النفس الجديد مثلا .

ان المواد التي اشرت اليها هي مواد اضيفت الى العربية بهذه الصيغ المجموعة نقلا من اللغات الغربية . لقد وجد الناقل العربي ان الكلمة Succès كلمة مجموعة في الفرنسية وهي مجموعة في الانكليزية فلم يكن منه الا ان صيرها « نجاحات » حفاظا على الاصل . ولم يعلم هذا الناقل انه ابتدع جديدا واحدث غريبا يقدح في صفاء العربية واصالة ديباجتها .

ومن المفيد ان اشير الى ان المغاربة مثلا قد ترجموا كلمة Cadres بـ « اطارات » وهم لا يريدون دلالة « الاطار » المادي كاطار الصورة او اطار آلة من الآلات وهو مجموع الخشبات الاربع التي تؤلف مربعا او مستطيلا ، بل يريدون بـ « الاطارات » مجموع الافراد العاملين في مؤسسة او معمل او اي مكان آخر ولهم صفة فنية في العمل . وهذا المعنى الاخير متوفر في الفرنسية ولكنه غير متوفر لهذه الكلمة « اطارات » في العربية .

وبذلك استحدث المغاربة مجازا جديدا غريبا ليس فينا حاجة اليه .

ابراهيم السامرائي
جامعة بغداد ــ كلية الآداب

متى يكون لنا معجم لشوارد الابيات

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

* * *

القدامى من أئمة اللغة العربية ، ورجال الادب . قاموا بمساهمة تذكر وتشكر . الا وهي جمع ما كان شاردا من قصائد وابيات الشعراء الجاهليين والاسلاميين والامويين والعباسيين .

وكانت اول محاولة تعتبر منظمة رائدة نافعة ذات قيمة . هي محاولة الشاعر العربي الذائع الصيت ابي تمام حبيب بن أوس الطائي . ولسنا ندخل في تفصيلات جمعه لكتابه « ديوان الحماسة » . والظروف التي احاطت به ودفعته لجمعه وتأليفه . فهي اخبار معادة مكررة .

لقد حفظ لنا (ابو تمام الطائي) الكثير من ابيات ومقطوعات ، كانت تبدو لنا مجهولة الناظم والشاعر ، واستطاع بذوقه الادبي الرفيع ان يلم شتاتها ، ويجمع اطرافها ، ويقدمها لنا غذاء روحيا وادبيا في طبق من اطباق المعرفة الانسانية .

وقلد ابا تمام الطائي قريبه الشاعر (البحتري) في حماسته . ثم توالت الحماسات للشجري ، والزوزني ، وابي الحجاج الاندلسي ، وشميم الحلي . وغيرهم ... وجاء فيها النافع الجميل المشرق ، وجاء بعضها بالمقلد المعاد .

وترى اليوم ان الكثير من دارسي الادب العربي ، والمهتمين بتراثه الرفيع . اذا مرت عليهم ابيات قديمة قد شكوا في نسبتها ، وتعيين اسم ناظمها . مدوا ايديهم لكتب الحماسة الشهيرة يطلبون في صفحاتها المعونة والنجدة ثم يعودون لامهات كتب الادب الشهيرة . كالبيان والتبيين ، وعيون الاخبار ، والاغاني ، ومعجم الادباء ، ووفيات الاعيان وتوابعه ، ويتيمة الدهر واترابها . يصلون بواسطتها الى غايتهم المنشودة ، ومرادهم المطلوب .

وربما تأتي ابيات فريدة ترددها الالسن وتعيدها الافواه ، وتتناشدها المجالس . فاذا اراد احدنا ان يعرف (من القائل) ؟ الرائد لهذه الابيات ، او لمعرفة واحد من نظامها . فلا يجد مصدرا او مرجعا واحدا عاما شاملا مفهرسا يدله على صاحب هذه الابيات . بصورة ترفع الشك عن نفسه ، وتثبت اليقين في ذهنه .

ولقد حاول الاستاذ الجليل الاخ الاديب الراوية (حسن الكرمي) في محطة الاذاعة البريطانية في برنامجه اللطيف « قول على قول » ان يبرد غلة من سأله عن قائل البيت الفلاني ، ومناسبة قوله .

والحقيقة ان الاستاذ (الكرمي) كان الى حد كبير موفقا في اجاباته وردّه على السائلين . ولكنها في الاغلب كانت تأتي ايضا ذات روايات عديدة ، بين الشك واليقين . ويظل الاستاذ المسؤول حائرا بين بين ، وصارفا جهدا كبيرا في البحث والتفتيش لاشباع رغبة السائل ، بما وجده عنده من مظان في الحصول على البيت المطلوب والضالة المنشودة .

كما انني قرات في مجلة « العرب » وفي سلسلة ابحاث الزميل الاستاذ الناقد الدكتور علي جواد الطاهر ، بأن الصديق الشاعر البحاثة الشيخ عبدالله بن خميس له كتاب باسم « الشوارد » . ولكني لم اطلع عليه مع الاسف . قد قام بمحاولة لجمع شوارد الابيات ومحاولة ارجاعها الى مصادرها واصحابها ، عن طريق النشر والاذاعة . وهناك جماعة من الادباء الذين جربوا وضع مجاميع شعرية بحسب الاغراض للابيات المرددة بين الناس . ولكنهم قصروا عن ارجاعها الى قائليها واصحابها الاصليين. ومنهم الاستاذ الفاضل المحامي العراقي ، المرحوم سليمان فيض في مجموعته الشعرية « المنتخب من اشعار العرب ».

كما وضع في بداية هذا القرن استاذ لبناني متذوق هو الشيخ المرحوم عبد الرحمن الناجم البيروتي ، كتابه « هدية الامم » ورتبه على المواضيع والابواب واهتم بحروف اوائل الابيات وسار به على طريقة الاحرف الهجائية . ولم يقتصره على الشعر بل اضاف اليه النثر . ولكنه لم يكمل حلقاته . وحالت ظروف نجهلها عن وصوله الى اتمام عمله النافع .

كم كنت اتمنى ان يكون لنا وبين ايدينا « معجم شعري » لشوارد الابيات العربية ، كما فعل الاوروبيون في فهارسهم النافعة في مختلف الاغراض والموضوعات لتراثهم ولتراثنا . على غرار المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ، والمعجم المفهرس للحديث النبوي الشريف ، ولمجاميع الامثال ، والشواهد النحوية ، والحوادث التاريخية والاماكن الجغرافية ، والاعلام ، والشخصيات العلمية . وان يوضع في هذا « المعجم » فهرس موجز لأسماء الشعراء المنسيين او غيرهم ممن نسبت اليهم هذه الابيات . واصبح من المؤكد بأنها لهم ، مع ترجمة موجزة قصيرة لحياتهم او سنوات ولادتهم او وفاتهم او تحديد عصرهم .

كما يكون في هذا المعجم ملحق لانصاف الابيات الشعرية التي لم تكن كاملة تامة . ومحاولة ارجاعها لصدورها او اعجازها ، مع اماكن تخريجها . وان توضع الابيات كذلك حسب مواضيعها واغراضها وابحرها .

الى الحبيبة المخطوبة

الخاتم الماسي .. كيف لبسته ؟ … وحبيبك الولهان كيف نسيته
مخطوبة .. أنا لا أصدق مسمعي … أكذاك أمرك طائعا أسلمته
ولبست فستان الخطوبة زاهيا … فيه عريسك واجد ما يشتهي
فاجأتني بالامر يصدم واقعي … فمتى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ أنت عرفته
ضاعت سدى أيام حب عارم … ما بيننا .. لم أدر كيف أضعته
او لم يهمك أمر قلب نابض … بهواك في نار الاسى أحرقته
ما زال يملكني الذهول تألما … عن حبنا المظلوم .. كيف قتلته
ذاك الهوى الجبار كان صواعقا … هوجاء عاصفة .. فأين دفنته
القلب منك وهبتنيه .. فما الذي … بعدي الى هذا الخطيب وهبته
أم انك استرجعته مني .. لكي … يعطى اليه .. بعدما استرجعته
ناشدتك الحب الصميم .. يشدنا … بعضا لبعض ... هل ترى أحببته
وكؤوس ذاك الحب اذ كنا بها … نسقى . أمن نفس الكؤوس سقيته
وحنان قلبك كان يغمرني .. فهل … في نفس ذياك الحنان غمرته
لغة العيون .. وكم تحدثنا بها … عما نكن .. فهل بها حدثته
نظراتنا الظمأى تزيد لهيبنا … نارا .. أ بالنظرات تلك نظرته
قد كان لا يرضيك الا شاعر … متوقد مثلي .. فكيف رضيته
الحب أثمن كل شيء في الدنى … قولي : فحبك لي بماذا بعته
ان كان أمرك من هواي قد انتهى … فهواك باق في الحشا لا ينتهي
ويظل قلبي حافظا عهد الهوى … لك .. حيث أنت ملكتني وملكته
سيذوب وجدا من صبابته .. فلا … تنسي : بانك انت قد ذوبته

بغداد ــ ص.ب ٢٢٠٣٨ … محمد جواد الغبان

فاذا نسي الباحث قافية البيت او رويه او بحره رجع الى الموضوع والغرض الذي يدور حوله ذلك البيت فيسهل عليه حينذاك الوصول الى غايته ، وهو مرتاح الفكر ، مطمئن النفس ، مصيب الهدف .

ان لهذه الكلمة (طريفة) . فقد سألني بعض الاخوة الافاضل عن البيت الشهير ومن قائله ؟ وهو :

فلما شربناها ودب دبيبها الى موطن الاسرار قلت لها قفي

فأجبته : انه لابي نواس الشاعر العباسي الشهير . فرد علي وقال لي : اني لم اجده في ديوانه . فرددت عليه بأنه مذكور في كتاب « البلاغة الواضحة » وفي باب من ابوابها . ولكنه ظل حائرا . فأزلت حيرته ، بأنه قد يكون لشاعر صوفي ، وهو اقرب لشعر (الشيخ محي الدين بن عربي) .

اذن اذا كان البيت لا يوجد في ديوان (ابي نواس) وهو المورد الاساس . وذكر في كتاب « البلاغة الواضحة » للمرحوم الشاعر (علي الجارم) وجماعته . فأين اذن تكمن الحقيقة ؟ ومن اين جاء اصحاب « البلاغة الواضحة » به ونسبوه لابي نواس ؟ والكتاب يعلم اجيالا من طلبة العلم ، وتلامذة المعاهد . وهناك الكثير الكثير مما يدور على شفاه القوم والسنتهم من هذا القبيل . وهم في حيرة مما ينشدون .

هذا الاقتراح ، او هذه الفكرة ، لا زالت جذورها تمتد في نفسي . اتمنى مخلصا ان يتاح لنا وقت التنفيذ والاخراج لها الى عالم التحقيق . وهي في نظري الآن تحتاج الى روية ، وعمل متواصل ، وجهود مشتركة لا تقتصر على همة فرد واحد ، بل الى مساهمة افراد قد عرفوا بالصبر والبحث والتنقيب ، او يأخذ المبادرة فيها ، الاخوان العلماء والاساتذة الافاضل من اعضاء المجامع العربية في الوطن العربي،او الاخوة التدريسيين في الجامعات الانسانية ، او مجموعة من طلبة الدراسات العليا .

ربي ... حقق هذه الامنية ، قبل ان تذهب وهي حبر على ورق ، او تمر مرور الطيف الجميل ، على وساد النائم المتعب الوسنان ، او المحب العاشق الولهان .

جامعة بغداد ــ كلية الآداب … محسن جمال الدين

من وحي مذكرات الشاعر الياس فرحات

بقلم وليم صعب

صاحب مجلة البيدر

* * *

تعرفنا بالشاعر الياس فرحات في منزله في مدينة (بالو اوريزونتي) — الافق الجميل — سنة ١٩٤٨ عندما كنا نزور (البرازيل) . وبعد اكثر من لقاء احب ان يطلعنا على مذكراته المخطوطة التي بقيت بحوزتنا اياما ، فأخذنا منها هذه المقتطفات وهي تلقي ضوءا على هذا الشاعر الموهوب ، ونحن نثبتها في ما يلي :

« عندما كنت تلميذا في (دير القرقفي) — دير ومدرسة للكاثوليك في مشارف كفرشيما — صغيرا جدا كان الكاهن يكلفني قراءة (الرسائل) يوم الاحد والعيد ، فكنت آخذ (الرسائل) الى البيت ، واحفظها ، واتلوها غيبا في الكنيسة ، فيدهش الحاضرون .

وقبل ان أودع المدارس نهائيا كنت قد اصبحت في نظر اولاد المدرسة (قوالا) اي اني كنت اشتهرت بقول الزجل المعروف بالقرادي .

اشتغلت ، اولا ، في معمل كراسي في بيروت ، ثم ارسلني ابي مع (اولاد كنعان) الى زحلة ، واولاد كنعان جيران لنا في (كفرشيما) كانوا يشتغلون في زحلة نجارين ، وكانت لهم شهرة واسعة . ولكن زحلة بعيدة ، وانا يكاد الشوق الى (الضيعة) يميتني ، وذكر الحبيبة وخيالها يملآن كياني ، فرحت انظم الازجال والاشعار التي يعلم الله كيف كانت من حيث الصرف والنحو ، على انني اكاد أؤكد ، الآن ، انها ، من حيث الاوزان ، كانت (مضبوطة) ، لاني لا اذكر اني نظمت ، في حياتي ، شعرا مكسورا .

بقيت في زحلة شهورا كانت كأنها اعوام ، ولم يكن يصل الى يدي من المال ما يكفي لشراء جواز سفر الى كفرشيما . وكنت اتهيب الهرب اليها مشيا على الرجلين . ففي احد الايام كتبت الى المرحوم ابي هذه القرادية :

العصفور اللي بعدو صغير متشوق للضيعه كتير
في سجنو مش رح يبقى : بس يريش بدو يطير

ولما كان المرحوم من (اولا دالذكا) فهم حالا ما اريد .

ونزلت من زحلة الى كفرشيما ، ثم اشتغلت بتنضيد الحروف في جريدة (الوطن) التي كان يحررها شبلي الملاط ، ثم في جريدة (الحقيقة) لصاحبها الشيخ عباس الازهري .

وبعد صف الاحرف والمطالعة ارتقت لغتي بنظم الازجال ، وكانت دائرة شهرتي كقوال معنى وقرادي آخذة في الاتساع ، فبعد ان كانت محصورة بين اولاد المدرسة انتشرت بين اولاد الضيعة وشبانها ، فصار هؤلاء لا يعقدون مجلس طرب الا وانـــا معهم ، يأخذونني الى الافراح والاعراس لأنازل فحول القول . وكنت ذكرت ان المرحوم والدي كان في شبابه قوالا ، وعليه فان (مرضي ورائي) . ولكنني لم اسمع والدي يغني ولا مرة لانه ، اذ كنت انا صبيا ، كان هو قد تجاوز الكهولة الى الشيخوخة ، ولكني كنت اسمع عنه ما يزيد رغبتي في الفن ويحفزني الـــى مجاراته . واذكر انه ، اول مرة سمعني اغني على ضفة (نهر الغدير) قرب (الجسر) منازلا المرحوم سعيد الكلارجي وكان هذا قوالا مشهورا ، بكى سرورا .

وتعرفت ، ولا اذكر كيف ، الى القوال الشهير امين ايوب (من الشويفات) ، وكان صاحب دكان في (خلدة) فصرت اتردد عليه كلما سنحت الفرصة .

وكنت قد تعرفت ، قبله ، الى القوال الاشهر الياس الفران (من دير قوبل) ، وكان ، كذلك ، صاحب دكان عند نهر بيروت ، فكنت اقول ، احيانا ، مع هذا ، واحيانا مع ذاك ، في مجالس غير مهمة ، طبعا . واذكر انني كنت ، مرة ، في خلدة عند امين ايوب ، وكان في مجلسنا بعض الناس ، فقلت لامين :

مشربكني بحبال السحر وصايبني بسهام العين
فكرك بحر وحدك بحر وفي (خلده) (مجمع بحرين)

فوصلت هذ هالردة الى مسامع الياس الفران ، فسر بها ، ومدحني عليها .

وفي خلدة كنيسة على اسم (العذراء) يحتفلون بعيدها احتفالا كبيرا في منتصف آب ، اذ يؤمها الوف من الناس من الجوار ومن الامكنة البعيدة . يجتمع الناس فيلهون ويأكلون ويشربون ويغنون ويسبحون في البحر ، وقل منهم من يعود الى بيته قبل مضي اسبوع ، او اكثر ، ففي يوم هذا العيد (من سنة ١٩٠٨ او ١٩٠٩) كنت في خلدة ، وكان فيها من الناس خلق كثير ، فجلسنا : امين ايوب وانا ، وحولنا حلقة كبيرة من الشبان الذين يحبون السماع ويحسنون (القول والرد) ، وكان عدد الحضور كبيرا جدا حتى لم يكن سطح (الخان) يسع احدا غير الذين كانوا هناك . ولأول مرة نازلت امين ايوب بصورة جدية في مجلس رسمي ، فبقينا ساعات وساعات نتجادل وننتقل من موضوع الى موضوع ، وانا معجب بنفسي ، والناس معجبون بهذا الفتى اليافع الذي يجادل احد شيوخ الفن واوسعهم شهرة ، فيرتجل الجواب المحكم الذي فيه النكتة اللاذعة .

ومما اذكره الآن ، اذكره لان الناس تناقلوه ، يومئذ ، وما زالوا يتناقلونه الى اليوم ، ان امينا قال لي :

بـــالاول كنــت مفشوش وخمنتــك انــك ســاوي
تاري بتسوى خمس قروش ومـــا بتلحــق زهـــراوي

وما ان انهى ردته حتى سمع الجواب الصاعقي :

بـالاول خذتـك شريـك وعـدت لخلفـي رجعتـك
لـو عطيوني نحاسة ديك بكون حمار ان ما بعتك

وكان في يد امين ايوب دف يضرب عليه ، فالقى الدف من يده ، ونهض فحملني ، واخذ يرقص بي ، والناس يصفقون ويضحكون .

وتفرق الناس ذاهبين كل الى قريته ، حاملين اخبار جلستنا تلك ، فاتسعت دائرة شهرتي حتى كادت تعـم الجبل كله .

ومرة كنت ، وفريقا من اصحابي ، على سطح الخان في خلدة ، فسمعت احدهم يقول : جاء منصور صافي ، ومنصور صافي (من الشويفات) ، كان قوالا ماهرا ، حتى انه كاد يكون شاعرا فصيحا . ولم اكن اعرفه . فلما وصل وجلس معنا استقبلته بهذه الردة :

ان كنك شاطر في الحساب وتكلـه في ضرب التعديل
عدلنـي قبالـك مـزراب وعدل حالـك نهـر النيل

فسر الرجل جدا ، واجابني جوابا لا اذكره ، وانما اذكر انه كال لي من المديح الكيل كيلين .

ولقد لقيت هنا في البرازيل صديقا قديما كان رفيقي ايام كنا صغيرين في الوطن ، فادهشني لفرط ما يروي لي من (رداتي) التي هي من النوع الذي تقدم . ادهشني لاني ما كنت اذكر منها شيئا ، حتى كأن ماضي لم يكن .

* * *

في اوائل سنة ١٩٠٠ رجع اخواي سليم وكريم من (جاميكا) في جزائر الهنـد الغربية ، فقامت الافـراح بوجودهما ، واستعاد الوالـد شبابه اذ كان ، فـوق السبعين ، يسير منتصبا كأنه ابـن ثلاثين . واذكر ان صديقنا امين ايوب زارنا في تلك الاثناء وقضى في بيتنا ليلة كانت سيدة الليالي ، فقد اجتمع عندنا فيها شبان الضيعة ، ودار قول القرادي ، والرقص ، وكانت ردة امـين في تلك الليلة :

يـا مـن عنـا تغربتوا وشربتوا صـافي الكؤوس
غبتـوا وتعبتـوا وجبتـوا جمـال ومـال وناموس

* * *

في اواخر سنة ١٩٠٩ دعاني صديق لـي ، اسمه الياس ياغي ، (من دمشق) ، حيث كان ينضد حروف مجلة البطريركية الارثوذكسية فيهـا ، فلبيت دعوتـه وسافرت الى دمشق حيث لبثت نصف سنة .

* * *

في (جويز دي فورا) ـ البرازيل ـ جاء للسلام علي اديب كان ساكنا تلك المدينة ، فقال لي ، في اثناء الحديث : علمت انك تنظم الشعر ، فهلا اسمعتني من منظوماتك شيئا ؟ وكانت ، في جيبي ، قصيدة حديثة النظم ، كنت اظنها آتي ، فمددت يدي اليها ، واخذتها ، ونشرتها ، وقرأت :

ضروبا من الاهوال حملني دهري وجر علي الهم والذل والقهر

قرأت البيت وانا انظر في وجه محدثي لأرى كيف يكون تأثيره عليه ، فلما سمع (العجز) ضحك ضحكة جمدت الدم في عروقي ، على انه لم ينتظر ان اسأله عن سبب ضحكه ، بل بادرني بقوله : ان العجز كله غلط . فقلت : واين وجه الغلط ؟ فأفهمني ان الكلمات «الهم والذل والقهر» مفعول بها ، وبما انها كذلك وجب ان تكون منصوبة . قلت : وما يعني منصوبة ؟ قال : مفتوحة ، لان الفاعل يجب ان يكون مرفوعا ، والمفعول به منصوبا . ولا ادري ماذا قال لي عن المجرور . والذي أؤكده لقارئي ، الآن ، ان ما سمعته من ذلك الاديب ، آنئذ ، كان ، ولا يزال ، الدرس الوحيد الذي تلقنته في الصرف والنحو .

* * *

على اثر وصولي الى البرازيل ، بعثت الى صديقي المرحوم امين ايوب بمطلع (معنى) اذكر فيه ألم الفراق والشوق وما قاسيت في السفر من مشقات ، اوله :

يـا امـين ، الدهـر فرقنا وبسهامـو البـين خرقنـا
مـن بعد مـا كنا نصيد سباع قصر عـن العصفور خردقنـا

كذلك بعثت الى الوالد بـ (قرادية) طويلة ، تصورت فيها اني ارسل باخرة مشحونة شوقا ، مكلفا ربانها ان يفرق حملها على اهل الضيعة بالسواء ، وقد جاءت فيها هذه (الردة) التي ظلت عالقة بالذاكرة :

«عا بيوت كفرشيما بـروم ودق بـواب المغلوقـه
واهدي شوقي للعموم : حنـا ومـرقس ولوقـا
موراني وكوتالي وروم هـي عندي مش مفروقه
بس يكون واحد مهضوم وما يكونوا عقلاتو تخان . »

* * *

ولد الياس فرحات في كفرشيما سنة ١٨٩٣ ، وصل الى البرازيل سنة ١٩١٠ ، تزوج سنة ١٩٢١ ، توفي سنة ١٩٧٨ .

وقد نشرنا هذه المقتطفات من مذكراته لنبرز الموهبة الفائقة التي خصه بها الله واسبغها عليه اذ انه ادرك قواعد اللغة العربية بدون معلم ارضي ، ونحن لمسنا هذا الامر المدهش في تحدثنا معه فكان يقرأ شعره بدون ان يلحن ، وكان عندما يسأل عن شيء في هذا الصدد يجيب : اني اضع الحركات الصحيحة في محلاتها دون ان اعرف قواعدها ، فاسمعوني ولا تسألوني .

بين اعلام اللغة العربية من الذين نظموا الشعر بشقيه : المشكل والعامي ناصيف اليازجي ، وولداه ابراهيم وخليل ، وابراهيم الحوراني ، وعبدالله البستاني صاحب معجم (البستان) ، ورشيد نخله الفائز بجائزة النشيد اللبناني ، ونعمه قازان ، ولكن ميزة الياس فرحات انه لم ينظم الا الشعر العامي في اول الامر ، وانتقل منه الى

الشعر المشكل . ويأتي بعده ، في هذا المجال ، الشاعر ايليا ابو ماضي الذي ترك مدرسة القرية في الحادية عشرة من عمره ، اي بتحصيل يوازي تحصيل الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) ، وتوجه الى مصر حيث عمل مدة في بيع لفافات التبغ ، ومن مصر انتقل الى الولايات المتحدة الاميركية حيث لمع نجمه كشاعر في الطليعة ، وهناك اصدر جريدته (السمير) ، وعددا من الدواوين .

وفي سبيل المقارنة بين هذين الشاعرين اللامعين ، اللذين تشابها في المؤهلات الدراسية والعلمية ، نثبت ، هنا ، قصيدتين لهما نظماهما عندما قدما الى لبنان زائرين واقيمت لكل منهما حفلة تكريمية القى فيها قصيدته ، وكان قدوم ابي ماضي قبل سنوات من قدوم فرحات :

قصيدة ابي ماضي

وطن النجوم ، أنا هنا : حدق ، أتعرف من أنا
ألمحت في الماضي البعيد فتى غريرا أرعنا
جذلان يمرح في حقولك كالنسيم مدندنا
المقتنى المملوك ملعبه وغير المقتنى
يتسلق الاشجار لا ضجرا بحس ولا ونى
ويعود بالاغصان يبريها سيوفا أو قنا
ويخوض في وحل الشتاء مهللا متيمنا
لا يتقي شر العيون ولا يخاف الالسنا
انا ذلك الولد الذي دنياه كانت ههنا
انا من مياهك قطرة فاضت جداول من سنى
انا من ترابك ذرة ماجت مواكب من منى
انا من طيورك بلبل غنى بمجدك فاغتنى
حمل الطلاقة والبشاشة من ربوعك للدنى
كم عانقت روحي رباك وصفقت في المنحنى
للبحر ينشده بنوك حضارة وتمدنا
للشمس تبطىء في وداع ذراك كيلا تحزنا
للبدر في نيسان يكحل بالضياء الاعينا
للحقل يرتجل الروائع زنبقا أو سوسنا
للعشب جلله الندى للغصن أثقله الجنى
عاش الجمال مشردا في الارض ينشد مسكنا
حتى انكشفت له فالقى رحله وتوطنا
واستعرض الفن الجمال فكنت أنت الاحسنا

قصيدة فرحات

سلست لي الاقدار بعد حران وأعاضني عما فقدت زماني
هذي ملاعب صبوتي أرتادها متنصتا فيها لهمس جناني
في كل منعطف حديث حداثة متسلسل منه معين معان
أشباح ماضي الاعيد قريبة مني تقابلني بكل مكان
وتضج في الذكريات مزيلة ما كان في الهجران من نسيان
لبنان يا نفس الخزام ضحى ويا قبل الندى للنرجس الظمآن
عاد ابنك النائي اليك وقلبه يروي حديث الشوق بالخفقان
عيناه تائهتان باحثتان في دنياك عن رفقائه الفتيان
يمشي هنا وهناك وهو محدق للناس والاشياء كالحيران
أين الذين تركتهم عند النوى في السفح بين الكرم والبستان
عاش المهاجر في المهاجر شاكيا بل حاسدا من مات في لبنان
باع الشقي شبابه بنقودها بيع المغامر حنطة بزؤان
لو عاد بالدنيا العريضة بعدما فقد الفتوة عاد بالحرمان

قال فرحات في مذكراته ان (مرض الشعر) انتقل اليه بالوراثة لان والده كان ينظم الشعر العامي . ونحن نتساءل : لنفترض ان الشعر يؤخذ بالوراثة ، فأول شاعر عمن اخذ وورث ؟

ينشأ اربعة اشقاء ، او اقل او اكثر ، في بيت واحد ، من والد واحد ووالدة واحدة ، فينظم احدهم الشعر ، والباقون لا ينظمونه ، وقد يكون الوالد شاعرا او لا يكون ، وقد يكون ناظم الشعر متصلا بالقربى بأنسباء ينظمون الشعر او لا ينظمونه ، فمن اين أتت الموهبة ؟ واذا كانت المسألة مسألة نسب وقربى فلماذا لا ينظم الاشقاء كلهم الشعر ؟

ان هذه التساؤلات تقودنا الى الحقيقة الثابتة وهي ان المواهب كلها هبات من الله وحده ، فلا يحق للانسان ان يتباهى بها وكأنها من صنعه ، كما لا يحق للناس ان يمجدوا الموهوب ، بل يحتم عليهم الحق ان يمجدوا الواهب .

قال بشارة الخوري (الاخطل الصغير) في حفلة تكريمه ومبايعته :

ان المواهب لا فضل لصاحبها كاللحن للطير او كالنشر للزهر

وكم هو صادق ونابع من صميم الحقيقة قولنا العامي الذي يطلقه الناس بعفوية عندما يشاهدون او يسمعون شيئا من شخص موهوب : « سبحان العاطي » — انهم يسبحون الله . ومن هذا المنطلق نحب ان نذكر هنا بأن كلمة « اكتشاف » يجب ان تحل محل كلمة « اختراع » او « استنباط » ، فالله اوجد كل شيء في هذا الكون ، والانسان انما هو مجرد مكتشف لا تنطبق عليه مطلقا صنعة المخترع والمستنبط .

وقال فرحات في مذكراته انه كاد ينسى كل ما نظمه في حداثته من شعر عامي « وكأن ماضيه لم يكن » — مع انه اشتهر بذاكرته المدهشة التي هي من نعم الله عليه ايضا — ولكن ذلك الماضي ، الذي تعمد ان يتناساه بالاحرى ، هو الذي كان يجب ان يحفظه ويذكره لان جذوة الشاعرية الاصيلة المتقدة توهجت وتألقت منه ، ولان ذلك الشعر العامي اللطيف ، الذي هو اساس موهبته ، اسبغ على شعره المشكل السلاسة والعذوبة والعفوية وجعله في سدة الفصاحة ، فما الفصاحة في معناها الرئيسي الا البعد عن التعقيد . ولولا عقدة النقص في التهرب الى الشعر المشكل من تحمل « تهمة نظم الشعر العامي » لكان لنا من الياس فرحات ديوان شعر عامي رائع يحتل مركز الصدارة بين الدواوين مشكلها وعاميها .

كان احمد شوقي يوما في زيارة رشيد نخله الذي قرأ له روايته (محسن الهزان) وعندما وصل الى هذا المقطع الوارد في مطلعها :

والسهل عشبو كان يموع موع الحرير   والليل من ضو القمر قطعة رخام
والليل من ضو القمر لونو انمحى   حتى الذهب خالط الفضه من الضحى
وراح النسيم عالسهل يمشي سوسحه   واللولحه لردان محسن والكمام

قال شوقي وهو مترنح : اني اقايض بكل شعري مقابل هذا المقطع !

وهل اثرت على قيمة شعر ناصيف اليازجي المشكل قصيدته العامية التي مطلعها :

شابهت بدر التم بالخقه   لما لبست الجبة الزرقا
انت القمر والشمس يا غندور   لكن منينلو البدر هالمشقه

وهل حطت من مقام خليل اليازجي قصيدته العامية التي مطلعها :

يا طير ، صوب بلادهم خذني معك   جسمي أخف من النسيم، شو بيمنعك
قللي : بتمنعني دموعك بالهوى   بلكي تبلل جانحي من مدمعك

قال (موريس بارس) الكاتب الفرنسي الشهير ، موجها كلامه الى رشيد نخله :

« الآن عرفت ما كنت اجهله ، فانتم ، جماعة الشعراء الشعبيين ، تعيشون في بيوت الناس ، ونحن نعيش في كتبهم ، فلا بدع ان نراكم اشد حرارة منا » .

وقال رشيد نخله :

« بقي شيء آخر أرى التبسط فيه ، اليوم ، لزاما علي ، وهو ما يقوم في الاذهان من ان الزجل بمثابة حرب على الفصحى ، فأستغفر الله الف مرة ! ما كان الزجل في الاندلس بالامس ، ولا في مصر ولبنان ، اليوم ، ليزج بنفسه هذه الزجة . فانما الزجل ، فخره ، كله ، في ان يرى وجهه في زاوية من مرآة الفصحى ويكون عليه شيء من روعتها وشيء من طلاوة الفاظها وحلاوة حواشيها ولباقة الاخذ بين خافيها وباديها . والعربية ، حين يقال ان الشاعر الزجلي يخرج فكرته وهي بعد حامية طلقة كما تمخضت بها قريحته ، فمحاسنها لا تعد ، وحسناتها الى صاحبها لا تحصى . واذا كانت هذه حسنة الزجل الى الزجال ، فما ترى يقال في حسنات الفصحى الى الشاعر وعنده منها كفتا ميزان العرب : البلاغة والفصاحة ؟

فالزجل ، اذا ، عيال على العربية من قديم الزمان الى اليوم ، فضلا عن كونها لسان الامة ، والزجل لسان طوائف منها يوم تترك فصاحتها بعض الحين وتقبل على عاميتها . واني ما اخترت العامية بدلا من الفصحى بل اراني اقبل على العامية حين اترك الفصحى ، واقبل على الفصحى حين اترك العامية ، ميلا مع الخاطر العارض او المناسبة الحاتمة » .

اننا نحارب حربا لا هوادة فيها فكرة تحويل عاميتنا الى لغة رسمية تحل محل لغتنا العربية الام ، وفي سبيل هذا عملنا وما نزال نعمل لجذب العامية الى المشكلة (الفصحى) فعقدنا المؤتمرات ونشرنا البحوث المستفيضة لاجل هذا الغرض ، ودعونا ، عاملين ، الى تطهير العاميات العربية من المفردات الاقليمية المستعملة في عامية دون الاخرى ، واستعمال المفردات التي يقرها قاموس اللغة العربية العام ليصبح الزجل المنظوم في احد اقطار العالم العربي مفهوما لدى سائر الاقطار .

والآن نعود الى الشاعر الياس فرحات لنثبت بعضا من ابيات نظمها بعد مرور خمسة عشر عاما على وصوله الى البرازيل واخرجها باسم (رباعيات فرحات) ، وهي تعطي صورة واضحة عن شاعريته الاصيلة المتأثرة بالعفوية التي امتاز بها شعره الشعبي :

لو يعرف الكبش أن القائمين على   تسمينه يضمرون الشر ما اكلا
والخد يعلم ما في الدمع من حرق   وليس تعلم ما فيه المناديل
ان البكاء على قدر الشعور فكم   تبكي الرجال ولا تبكي التماثيل
فاذا حكمت على امرىء لسواده   فلقد حكمت على حسام مغمد
فلرب قلب كالحمامة أبيض   للخير يخفق تحت جلد أسود
نشكو أذى الدهر شكوى لا أساس لها   فالدهر لم يرتكب اثما ولم يجر
لا يقفل البشر الابواب ان رقدوا   خوفا من الدهر، بل خوفا من البشر
أرى في شعبنا بعضا ذليلا   وأخشى أن يصير البعض كلا
فان الخل ليس يصير خمرا   ولكن قد يصير الخمر خلا

اشتهر فرحات بوطنيته وعزة نفسه وابائه وترفعه . عندما دعي سنة ١٩٣٣ ليتكلم في حفلة ذكرى الملك فيصل الاول باع عددا من حملان مزرعته الصغيرة ليسافر من البرازيل الى الارجنتين على نفقة نفسه . وعندما فاز سنة ١٩٤٧ بجائزة المجمع العلمي (اللغوي) المصري رفض تسلمها رغم حاجته الى المال وطلب تحويل قيمتها الى صندوق اغاثة فلسطين .

* * *

قال الشاعر ايليا ابو ماضي في احد مواقف حيرته الكثيرة :

افكر كيف جئت وكيف أمضي   على رغمي فاعيا بالجواب
اتيت ولم أكن أدري مجيئي   واذهب غير دار بالاياب

وقال الشاعر الياس فرحات في احدى رباعياته :

فان كان (الشميل) و (المعري)   ورهطما هنالك في السعير
فقد فضلت . . . .

لقد كان حريا بهذين الشخصين ، اللذين أغدق عليهما الله هباته الجمة السخية ، ان يعرفا الله معرفة تامة من خلال تعامله معهما ، فلا يبقى ذاك في حيرة وهذا في ضلال . واذا كان الموهوب يحسد واهبه وينفر منه جاحدا فضله ، وكلاهما من البشر ، فان هذا التصرف فظيع جدا من قبل الانسان الموهوب تجاه الله الواهب .

ما أضل الانسان الموهوب الذي يتوهم ، عندما يصفق له الناس ويثنون على مواهبه ، ان تفوقه من صنع يديه ! الا ينطبق عليه قول ايليا ابي ماضي ذاته :

نسي الطين ساعة أنه طين حقير   فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى   وحوى المال كيسه فتمرد

وليم نجيب صعب

لبنان

*

لبنان ناجيت هل لـي غير لبنان   عنـد المناجاة في سـري واعلاني
من جذع أرزك لي عود عزفت على   أوتـاره كـل أنغامـي والحاني
مـن جذع أرزك مهد في جوانبه   هدهدت فيها فؤاد المدنف العاني
زوقتـه بتعاويـذ بمـا قطفـت   كفي وما نمقت مـن زهر نيسان

لبنان يا سحر هذا الشرق واحته الـ   خضراء يـا جنة من غير رضوان
حشد مـن الصبوات الحمر متقد   كأنهـا في الحنايـا وقـد نـيران
وتحـت أرزتـه في مـد وارفهـا   مـدت موائـد سمـار وندمـان
وفي زحيلـة في برذون عالمهـا الـ   سحري كـون تباهى بـين أكوان
علـى الخدود بهـا التفاح مؤتلق   وفي الصدور تناهى غرس رمـان
من نبع باروكه البلور كـم نهلت   روحي وبـل رذاذ النبـع أرداني
تهفـو اليـه شفاه الغيد ترشفه   كما الى الورد يهفو سرب غزلان
أدمنت حبك يـا لبنان مـن قدم   فحبذا بـك يـا لبنـان ادماني
لبنـان مـا أمتع اللقيا وأنضرها   كما التقى بعد طول البعد صبان
تشدني بـك يـا لبنان رابطة الـ   قربى وطالع سعـد منـك حياني
فنصفي الحلو مـن لبنان مورقة   بـه حياتي ومنه اخضر وجداني
دنيا مـن الذكريات السمر ماثلة   أمـام عينـي مـن أزمان أزمان
دنيـا هـي العمر أوطار منغمة   فكـم لهوت بظـل منـه فينـان
دنيا من الذكريات البيض تغمرني   أحلامهـا راودت قلبـي وأجفاني
ناغيتها والصبا الريان يشفع لي   وقـد وهبت لهـا حبي وتحناني
ايـام لبنـان لا مـرت بآهلـه   الا سحائـب مـدرار وهتـان
ولا سرت في ربـى لبنـان عابقة   الا ومـن عطرها فلـي وريحاني
لبنـان أيكـة أطيـار مغـردة   قـد ثار مـن تحتها زلزال بركان
عوذت لبنان مما قـد ألـم بـه   وما ألـم بـه في القلب أصماني
هـول تغـول لبنانـا تغولنـي   وجـرح لبنـان أدمـاه وأدمانـي
فيـا مرابعـه الخضراء شاحبـة   عوذتكـن بانجيـل وقـرآن
عوذتكـن بآيـات مذهبـة   حلـى مقدسة في جنـب صلبان
مباخر حولها تذري البخور بهـا   أكـف صفوة أشيـاخ ورهبـان

بغداد ــ ص٠ب ٤٦٧   باقر سماكة



احمد حسين الطماوي

الصورة الادبية بين الكاتب والناقد

بقلم احمد حسين الطماوي

* * *

نستهل مقالنا بتعريف الصورة الادبية قائلين انها مجموعة الكلمات التي تصف مشهدا معينا من مشاهد الحياة ، ويستخدم الاديب في توصيف هذا المشهد الادوات البلاغية والبيانية المعروفة بالاضافة الى ادخال الخيال لتنوير الصورة . والالوان البديعية في ذاتها لا تعنى شيئا ولكنها تعطي قيمة اذا ما امتزجت بالصورة الادبية المجردة بنسبة لا تفسد المعنى الذي تحمله الصورة .

وتقوم الالفاظ بالدور الرئيسي في تكوين الصورة . فانه ليس امامنا الا الفاظ اللغة للتمييز بين الاشياء المختلفة والمتشابهة على حد سواء . واستخدام اللفظ في العبارة له خطورته البالغة . فاذا تعثر الكاتب في اختيار الالفاظ تعذر عليه بالضرورة توضيح ما يصبو اليه واختلطت عليه المعاني وضل الطريق الى هدفه واخفق في مسعاه . فجميع الالفاظ تنتظم خلال عملية التوفيق والايلاف فتخلق الصورة التي بدايتها اللفظ ونهايتها المعنى ، ولهذا فتوافق المفردات مع الفكر يجلو الصورة ويبرز مضمونها ، ومن هنا فالالفاظ توصل الصور . لانه لا يمكن انكار العلاقة بين المشهد الموصوف والكلمات التي تنقله وتعبر عنه .

ومشاعرنا الرهائف ، وملكاتنا المتيقظة ، هي التي تلتقط جزئيات الصورة ثم تنتظم هذه الاجزاء والمدركات وتأتلف في وحدة متكاملة . ومن هنا فالصورة تتأثر بدرجة المشاعر ومدى حساسيتها ، وتتوقف على الملكات ودرجة تفوقها .

والمشكلة هنا ليست مشكلة تكوين الصورة ولكن كيفية وضعها ، وما هو الدور الموكول اليها ؟ وما هي طريقة نقل فكرة من الفكر بصورة او بمجموعة من الصور ؟

فالمؤلف يحاول دائما ان يوفق بين صور مختلفة تهدف في النهاية الى اظهار فكرته او تصوره عن هذا الموقف الذي يتناوله بالتوصيف ومن ثم تكون هناك علاقة وطيدة بين الصور الادبية والبنيان الموضوعي الذي ترد فيه . لان الصور جزئيات لا يمكن ان تعيش بمفردها وتنهض بالدور المسند اليها .

فمهمة الكاتب في هذه الحالة هو ان يجعل الصور معبرة عن طبيعة الموضوع وتحديد دور كل صورة منها في هذا المضمون . ومهمة الناقد ان ينظر في مدى صلة الصورة بالموضوع .

اما الدور الذي تؤديه الصورة فهو انها تنقل المضمون الذي في ذهن كاتبها والذي يريد نقله الى القارىء بواسطة هذه الصور الادبية وهنا تؤدي الصور دورها الدقيق والهام وهو تقريب المعنى وتوضيح العلاقة بين الاشياء في عالمنا والايحاء الى القارىء بأفكار معينة وهذا هو الجانب الفني فيها .

وعلى هذا فانه يمكننا تحديد المراحل التي تمر بها الصورة :

المرحلة الاولى : وهي مرحلة بناء الصورة وكيف يتم وما هي الوسائل والادوات .

المرحلة الثانية : هي مرحلة ما تؤديه الصورة الادبية من دلالات وايحاءات ومهمتها في تحديد وتحقيق اهداف الكاتب .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة صلة المضمون المعنوي او الفحوى الكلامي او المعنى الذي يريد ان ينقله الكاتب الى القارىء بالصور الادبية التي تتخلله .

ومن هنا فالصورة الادبية تبدأ في الذهن او بما يمكن ان تطلق عليه « الصورة الذهنية » وهي المدركات التي تتحقق بواسطة الشعور ثم تنتظم وتأتلف في وحدة متكاملة ومتى احسسنا بهذا الانسجام بين وحداتها الذي يولد المتعة اصبحت الصورة متكاملة في اذهاننا ، ثم تنتقل الصورة من الشكل الذهني الى الشكل الادبي ، فتنتقل المشاعر الرهيفة والملكات المتيقظة وتمر بثقافة الاديب وخياله فتأخذ زخرفها وشكلها الاخير . ومن ثم فالصورة

يكتبها الاديب حسب مشاعره ومدى حساسيتها ، وحسب ملكاته وقيمة تفوقها ، مضافا الى ذلك ثقافته ومقدار شمولها ، وخياله ومدى سموه . اذن الصورة والحالة هذه يكونها الذهن والمشاعر ثم تكتب فتحمل انشطة الذهن والوان المشاعر في وحدة واحدة .

وتأخذ الصورة الادبية عدة اشكال حسب كاتبها ، فتوجد الصورة التي نرى فيها الكاتب يروي مشهدا وينقله دون اضافة او حذف وهنا لا تحمل الصورة الكثير من سمات نفسية كاتبها وثقافته . وهذه هي الصورة البسيطة . وتوجد الصورة التي نرى فيها الكاتب وقد خلق من الواقع مشهدا جديدا بما اضفاه عليه من حسن تصوير وعرض لهذا المشهد . وهذه هي « الصورة المتطورة » ثم اخيرا الصورة التي يبدعها كاتبها من عالم خياله ويصور فيها احداثا تبدو كما لو كانت حدثت بالفعل في الواقع المنظور ، فيرتب اجزاءها وينظمها ويوجد علاقة بين ابعادها ولا يستطيع اتيان هذا الا بعد تدريب واجتهاد وهذه هي « الصورة الادبية الفنية » التي لا يقصد بها ان تكون اكذوبة او اسطورة ، وانما هي التي ادى فيها الخيال دوره المؤثر ، وقد يطالعنا بين الحين والآخر عند القراءة كثير من الصور الادبية التي تأخذ النفس وتستوقفها ، والصور الميتة المنطفئة وهذا يرجع الى منطق الخيال .

وان ما قاله « وليم بليك » الشاعر والفنان الانجليزي من ان الصور الادبية ليست نتيجة تأمله في الطبيعة ولكنها توجد في نفسه وتأتيه عن طريق الخيال ، لهو الحقيقة في هذا الموضوع ، اذن فالخيال هو الذي يجعل الصورة فنية ونتيجة لهذا تكون الصورة ذات اثر في نفوسنا .

* * *

انه من الطبيعي ان الكاتب يعتمد على الصور في نقل افكاره . والناقد يعتمد عليها ايضا في تلقي هذه الافكار وتوليد المعاني في ذهنه ، ومن هنا كانت للصور اهميتها في دنيا الادب . فالاديب يتصل بالواقع او بالمشهد نفسه ، والناقد يتصل بالصور الادبية التي امامه في قصة او مسرحية او قصيدة غنائية او ملحمة اسطورية ... الى آخره . وهنا يتنبه الناقد الثاقب الذي يتصل بالواقع عن طريق هذه الصور الى مدى صلة الصورة بالواقع او للصور التي تبدو كما لو كانت قد حدثت بالفعل في عالم الواقع .

فالناقد ينظر الى الصورة التي وصلته عن طريق الالفاظ ليتبين هل الصورة ادت المهمة الموكولة لها ام ان الصورة اختلت ومضى عنها نظامها ولم تف بما تنطبع عليه من ابراز للحقائق بين الاشياء والشخوص في الحياة .

لا شك ان الناقد هنا هو الذي يستطيع ادراك كل هذا وليس دور الناقد كله ان ينتهي الى معرفة حدود نجاح الكاتب وفشله في رسم الصورة التي يريد ان يضعها بين ايدينا . فالناقد اديب بطبعه ، والنقد هو نتاج ادبي بطبيعة الحال . ولهذا فعلى الناقد ان يوجد الصورة الحقيقية او يرسم لنا الصورة التي عجز الكاتب عن رسمها وصياغتها وليس من عمل الناقد املاء الاسس وارساء القواعد على المؤلف فحسب بل مشاركة وتعاون في توضيح ما هو غائم ، وتحليل ما هو معقد ، لان ملاحظات الناقد هي المنبهات الموقظة التي تحذر الاديب من المضي في الخلط بين الامور وتجنبه اخطاء يتعثر فيها دون دراية ذهنية .

وليس معنى هذا ان نطالب الناقد ان يعيد لنا كتابة المسرحية التي يتناولها بالنقد او ينظم قصيدة شاعر نظما جديدا حسبما يرى بل ان ملاحظاته ونقداته واسسه هي التي تقوم الصور الادبية المنقودة ، اي انه باضافة ملاحظات الناقد تتضح في النهاية الصورة الادبية المتكاملة .

ولو اخذنا انتقادات « العقاد » على شعر « احمد شوقي » كمثل لما نقول لرأينا كيف عدد عيوب شعر شوقي والتقليديين بصفة عامة من تفكك في قصائدهم وعدم الصدق في مشاعرهم ، والسقطات الاسلوبية في اعمالهم التي تزخر بها كتب العقاد النقدية ومقدمات دواوينه . ومع ذلك لم يقم باصلاح هذا الشعر ويعد بناء قصائده بل رأينا العقاد يجتهد كل الاجتهاد ليخلص شعره هو مما عاب به غيره من الشعراء . بل ان ملاحظات العقاد على شعر التقليديين لم يستفد منها شوقي ومدرسته فقط بل اثرت هذه الفصول النقدية في الشعر العربي الحديث كله الذي ظهر بعد نشر كتاب « الديوان في الادب والنقد » للعقاد والمازني وهنا يكون النقد خلاقا والناقد منتجا .

فالنقد اذن درجتان : درجة ملاحظة الخطأ والاشارة اليه مع ذكر ملابساته . ودرجة الابتكار وتخيل معان اخر للصورة الادبية برمتها . لان الخيال يعين الناقد على تفهم الموقف الذي يتحدث فيه الكاتب ويستحضره في ذهنه واضحا جلي المعالم بعد التركيز والتعمق ، وهذا هو ادراك الناقد لموقف الكاتب من الوقائع والاحداث .

وقد قلنا من قبل في مقال نشرته مجلة « قافلة الزيت » في عدد جمادي الاول ١٣٨٨ هـ (يوليو — اغسطس ١٩٦٨) تحت عنوان « النقد الادبي بين الذوق والعلم » ما نصه : « وللمرء ان يتساءل عن وظيفة الخيال في عملية النقد ، والجواب على ذلك ان الخيال يلعب دورا واحدا في عملية النقد وهو انه يحاول ان يضع البدائل لكل المتحققات الفنية التي تتمثل في العمل الفني وتتخلل اجزاءه ، فالخيال يضع امام الذهن كل احتمالات تحقق الفكرة او المعنى المراد التعبير عنه بانتاج العمل الفني ، والخيال هو الذي يرى كل الامكانات التي لا يتحتم بالضرورة ان تكون هي ما انتجه الاديب في عمله تعبيرا عن المعنى فالاديب يرى وجها واحدا لتحقيق المعنى في التعبير الفني هو الذي يؤديه ويبرزه ،

صنعة الادب

كل الصنائع للانسان فاتحة ... باب التجارة ، الا صنعة الادب
جربتها وأنا غض الاهاب فتى ... فما وجدت بها ربحا لمكتسب
كم يعصر الفكر انسان بوحدته ... ويصرف العمر بين الهم ، والكتب
وآخر يحسب الاموال طائلة ... بين الدفاتر ، والارباح في عجب
شتان بينهما في كل مسالة ... والامر في الناس موكول الى رتب
يشقى الاديب لأجل العيش من صغر ... حتى يشب على الارهاق والتعب
ويجمع المال أهل الجهل في شره ... جمع الغنائم أطباقا من الذهب
ان الذين على الغبراء في رغد ... الا الاديب فيشقى دونما سبب
من عهد عيسى وهم فيها سواسية ... توارثوا القهر مولودا وراء اب

الكوت — العراق ... كاظم محمد حسين

اما الناقد فيرى مئات من الاوجه الاخرى التي يمكن ان تؤدي هذا المعنى في اعمال ادبية وهو يرى هذه الاوجه بخياله طبعا .

فالقصيدة التي تجود بها قريحة الشاعر في معنى معين لا يشترط بالضرورة ان تكون التعبير الوحيد عن المعنى المراد اداؤه فمثلا بيت المتنبي القائل :

انام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

يمكن لشاعر آخر ان يسوق هذا المعنى بأساليب شتى وطرائق اخرى وبطبيعة الحال ان الخيال هو الذي يستطيع تصور احتمالات الاداء المختلفة وعلى الناقد الحصيف ان ينظر الى العمل الفني الذي ابدعه الشاعر في هذا المعنى وان يسأل نفسه : هل هذا اوفق واطيب ما يقال في هذا المقام ؟ ولكي يستطيع الناقد ان يبلغ هذا المدى ينبغي له ان يعدد اوجه احتمالات الاداء المختلفة ويزن القصيدة في ضوء هذه الاحتمالات بكل ظلالها » .

وجملة القول ان الخيال يفتح ناظري الناقد ويجعله لا يغفل شيئا له صلة ما بالموضوع المعروض فنفهم بهذا القيم الفكرية ونتجنب زلات ليس لها ما يبرر وجودها بل انه يحرر العقل من الافكار المبهمة حيث تمضي الصعوبة التي مصدرها الغموض والاغراق في الرمز .

وانه مهما يكن من امر فان دور الخيال في النقد ومهمته الكبرى لا بد ان تنهض دراسات اخرى تعضد هذه الآراء وتبين مقصدها ، لانه يجب اضافة نقطة جديدة الى النقد الادبي وهي ان النقد لا يؤسس على الذوق الشخصي وحده او على الخبرات النقدية القديمة المتوارثة وحدها التي تعاون الذوق ، بل يعتمد اعتمادا كبيرا على الخيال .

ونضرب مثلا ببيت المتنبي لنبين كيف يؤدي كل من الذوق والخبرة الموضوعية والخيال دوره في عملية النقد :

وما كمد الحساد شيء قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق

فالناقد الذي يستخدم الذوق في الاستحسان والاستهجان عندما يقرأ هذا البيت تأخذه الحماسة الملتهبة ويثني على الصور الادبية التي اشتملها هذا البيت بعد ان نبهت مشاعره وانفعالاته .

والناقد الذي يستعمل الخبرات العلمية والموضوعية في نقد الادب يروح في نشوة عندما تسعى اليه صور هذا البيت وقد طابقت القواعد البلاغية والنقدية التي درسها واتخذ منها معيارا لقياس الادب والحكم عليه .

اما الناقد الذي يستعين بالخيال في عملية النقد فان حالة الانسجام التي تشمله وهو يقرأ بيت المتنبي هذا ليست نتيجة تنبيه الصور لاحساساته ، وتوجيه انفعالاته ، وليست هي مطابقة هذه الصور لنظريات النقد التي تناهت اليه واقتنع بصحتها . ولكن نتيجة لعملية تخيل واسعة لصور ومعان انشأها ذهنه حتى يستطيع ان يدرك — في ضوئها — مدى قدرة الصور التي يشتمل عليها هذا البيت في تحقق المعنى الذي قصده الشاعر وعبر عنه بهذا الشكل الفني .

ان الصور الادبية التي يقدمها الكاتب توصل الينا ملامح شخصيته وتجاربه .

اما الناقد فانه يعيش هذه التجارب بخياله ولا يشترط ان يجربها في عالمه الواقعي .

القاهرة ... احمد حسين الطماوي



خطرات فكر

بقلم سعد صائب

***

(١)

لكم اجد في نفسي اشفاقا على « شعرائنا الجدد » حين ارى الى الحيرة وقد اخذتهم من كل جانب ، فأمسوا وكأنهم في دوامة ! .

ليس بمستغرب ان الثورة على « الشعر التقليدي » التي واتتهم من الغرب في منتصف هذا القرن ، قد علمتهم ان يثوروا ، بيد انهم بدوا وكأن « ثورتهم » ليست من شكل ثورة معلميهم ، فبدلا من ان يحفلوا مثلهم بقديمهم ، ويتثقفوا بـــه ، ويكثروا من المدارسة له ، ويسيروا في « ثورتهم » سيرا لينا فيقيموا « جديدهم » عليه ، مضوا ــ لضعف بصيرتهم ــ مهتاجي الشعور ، يمعنون في رفض القديم ، ويصدون عنه ، ويغلون في التنكر له ، كأنما قد وقر في خلدهم ان هذا الاهتياج والرفض ، او هذا الصد والغلو في التنكر ، قد ماثلا مـــع ثورة شعراء الغرب ، وانتهجا نهجها ، وما دروا انهما دلا على جهلهم معناها .

فأفضى هـــذا الجهل المقيت الـــى عجزهم عـــن اقامة « جديدهم » الذي ثاروا من اجله ! .

ولكم ناجيت نفسي : ترى ... ما مأتى عسر هذه « الولادة الجديدة » التي خالوها تمثل « تحولا » في شعرنا وانبعاثه ؟ .

الأنهم لم يأخذوا « لثورتهم » اهبتها ؟

ام لان قيود التقليد التي رزحوا تحتها ، قد اثقلتهم فلبسهم الكلال ؟

ام لان ثقتهم « بثورتهم » قد زايلتهم فضلوا ، فاستقر في روعنا ان الحيرة التي اخذتهم ليست دليلا على انقطاع الصلات والاسباب بينهم وبين تراثهم فحسب ، بل دليلا على انهم لم يحيوا روح الثورة التي لا بد وان يحياها المجددون ، وان يحسوها في وجدانهم كذلك ؟

الا ليتهم علموا ان « من لا خير فيه لماضيه ، لا خير فيه لحاضره ومستقبله » وان الشعب « اذا ما اعرض عن تراثه الادبي ، ارتد الى الهمجية ، او كف عـــن ابداع الادب ، وتوقفت فيه حركة الفكر ، وشل الشعور ، وصار دوران الحياة فيه الى سكون » ! ..

(٢)

ما ان لقيته وتبادلنا التحية حتى بادر الى القول :

قرات رايا لناقد غربي في « هملت » ما وقعت على كلام للنقاد اصدق منه !

قلت وانا ارق له رقة شديدة : هاته !

قال وهو يرميني بمؤخر عينه : « ان مأساة « هملت » في صميمها ، انه رجل يسير بفكره المجرد في واد ، وبجسمه وحواسه وتجاربه في واد آخر ... هو رجل لا يبني تفكيره على تجاربه ... ومن هنا كانت متاعبه » ! .

قلت وقد رابني منه شيء وشت به نظرته ، فكشفت عن اربه ، ففطنت له : لقد غمض علي امر ايرادك هذا الراي ، فمن عنيت به ؟

قال كمن يتحدى : عنيت « شعراءنا الجدد » ... ثم اردف : اولا تشبه مأساة امتنا فيهم ، مأساة « هملت » نفسه ؟ .

قلت وانا ادير في نفسي سؤاله : لكأني بك قد اعتدت ان تجعل مما تعثر عليه من آراء مادة مترفة لشعورك وخيالك ، ومجالا خصبا لازرائك على « شعرائنا الجدد » وغمزهم والعذل لهم ... اما آن لك ان تغضي عما يخطر في وهمك من مثالبهم فتتخيل فيهم الخير ؟ .

قال وهو يحدجني بنظره : لو انك تعي من خفي الآراء ما اعي ، وتسبر عما تعنيه مثلما اسبر ، اذن لتحقق

لك منها ما تحقق لي ، ولأرضيت عقلك وذوقك كما ارضيهما ! .

قلت وقد عيل صبري ، واوشك الملال ان يسرع الي : ماذا رأيت من مأساتنا فيهم ؟

قال مغضبا : او لم تر اليهم — بعد ان ازلهم التقليد عن سليقتهم فأخرجهم مما هم فيه — يسيرون بنظمهم « المجرد » في واد ، وبأجسامهم وحواسهم في واد آخر ؟ . وانهم لا يبنون « شعرهم » على تجاربهم التي تعكس حال امتهم ومصيرها ومستقبلها ؟ . او لا يخطر في وهمك ان مأساتنا فيهم بلـه متاعبنا ، شبيهة بمأساة « هملت » ومتاعبه ؟ .

واذ فرغ من كلامه ، ولم اشأ ان يتمادى في الازراء على « شعرائنا الجدد » وغمزهم والعزل لهم ، رحت انشده مخففا من غلوائه :

لا تزجر الفتيان عن سوء الرعه   يا رب هيجا هي خير من دعه(١)

ثم لم نلبث ان اخذنا نضرب في السير حتى ابعدنا ، وكلانا يصرف وجهه عن اخيه ، مواريا دموعا هملت من عينيه جزعا على مصير شعرنا ! . .

(٣)

سألته : الى اي فن من فنون الرثاء تعزو ما ردده شعراؤنا اثر « نكبة حزيران » ؟ االى الندب ؟ ام التأبين ؟ او الرثاء ؟

اجاب : الى الندب !

قلت : لـــه ؟

قال : لان شعراءنا لا يبرحون ينوحون علينا ويبكون « بالعبارات المشجية ، والالفاظ المحزنة ، التي تصدع القلوب القاسية ، وتذيب العيون الجامدة » ولا ينـــون « يصيحون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع » شأنهم في ذلك شأن شعراء الاندلس في عصر « ملوك الطوائف » كلما استخلص الاسبان مدينة ، او ضاعت بلدة ذرف الشعراء الدموع حارة سخينة »(٢) . . .

قلت : او لا يشبه رثاؤهم هذا بداية الرقص والغناء عند الهمجي ؟

قال وهو ينعم النظر في : وما وجه الشبه ؟

قلت : او ليس الرقص عنـــده « انتفاضات رعب وحركات توسل » ؟

قال : بلى !

قلت : او ليس الغناء لديـــه « تأوهات وصرخات استجداء » ؟

قال : بلى !

قلت : كذلك اضحى شعرنا في اعقاب « النكسة » شبيها برقص الهمجي وغنائه ، بعد ان اعاره « شعراؤنا » انتفاضات رعبهم ، وحركات توسلهم ، وحملوه ما لا يطيق من تأوهاتهم ، وصرخات « معاناتهم » حتى لقد كادت هذه الظاهرة ان تتحكم لا في نفوسهم فتعذبها فحسب ، بل اوشكت ان ترسخ في نفوسنا فتعذبنا كذلك ! . .

قال كمـــن اهمه الامر : وماذا كنت تبتغي مـــن « شعرائنا » وتلك حالهم ؟

قلت : كنت ارجو ان يكتموا هذا « الرقص » ويخفوا عبء هذا « الغناء » ويجنبوا عنا هذه المرآة التي لا تتراءى في صقالها صورتهم على حقيقتها فتهيج اشجاننا ، وتسيل عبراتنا ! .

قال مخففا من غلوائي : اتراهم بعد ان اسرفوا في النحيب ، وتمادوا في النشيج ، وامعنوا في سكب الدموع ، يرتضون ان يتخلوا عما درجوا عليه ، والفوه ؟ ثم اردف : او لا يكفيهم « فخرا » انهم احزنوا احياءنا فضجت بحزنهم ارضنا وسماؤنا ، كما احزنوا موتانا ، فضجت بحزنهم قبورهم ؟ أليس ذلك هو القصد من « رقص » الهمجي ، والهدف من « غنائه » ؟

قلت : ولكن تصوير المأساة ، واستثارة الحمية ، او الهاب العواطف ، لا ينحو هذا النحو ، والا واد المأساة ، واضعف الحمية ، واخمد العواطف ؟

قال وهو يغرب في السخرية : حسبهم انهم افلحوا في ذلك ، فلم يميتوا الاحياء فحسب بل خابوا في احياء الموتى كذلك ؟

ثم ما لبث ان مضى وقد خانه تجلده ، وغلبه الحزن والشجن ، وراح يهتف مرددا :

أبديت مثل الذي ابديت من جزع
ولم تجنى الذي اجننت من الم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالآن اقحم حتى لات مقتحم(٣)

---

(١) — البيت لشاعر قديم ... والرعة : حالة الاحمق التي رضي بها.

(٢) — انظر : الرثاء ص ١٢ و ٤٩ للدكتور شوقي ضيف — الطبعة الثانية — دار المعارف .

(٣) — البيتان للمتنبي ... ابديت : اظهرت .. والجزع نقيض الصبر .. واجن الشيء : اخفاه .. لات : بمعنى ليس ، والاصل فيها لا ، فزيدت عليها التاء (انظر : العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب — للشيخ ناصيف اليازجي ص ٣١) .

دمشق — الروضة — جادة بدر الجمالي   سعد صائب



وحيد الدين بهاء الدين

جورج صيدح كما عرفته

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

منذ شرعت اطل على عالم الادب المتراحب ، في استهلال الخمسينات ، اخذ يجتذب انتباهي ، وانا اقرا الصحف والمجلات المستقرة بين يدي ، نشاط ادبي محموم ، تعززه اريحية ظاهرة ، يبديهما هنا وهناك ، شاعر مهجري ، لم يسبق لي به عهد ، ولو على صفحات الكتب المدرسية ، حتى لخيل الي انه برز الى الوجود الادبي فجأة ، يدعى جورج صيدح .

ولما صدرت محاضراته ، وقد القاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية ، في كتاب مستقل ، اطلق عليه « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » اكبرت فيه منهج بحثه ، وجدة اسلوبه ، وثراء مادته ، اكبارا جعلني معه احرص على متابعة انتاجه الشعري كفنان ، واستشفاف مقوماته الذاتية كانسان ، على نحو من الانحاء ، من خلال ذلك كله .

ثم ما لبثت دائرة متابعتي لادبه ، واستشفافي لشخصيته ، ان اتسعت لاشاراته اللماحة الى بعض من آراء المستعرب التركي : اسماعيل احمد ادهم ، بصدد تطور الادب العربي ولا سيما المهجري وتجدده ، واستقلال الفنان في رؤاه ومنحاه ثم صلة هذا وذاك ، بتطبيقات العلوم المعاصرة ، خاصة علم النفس .

ببداية علاقتي الفكرية والروحية بشاعر « عبقر » : شفيق معلوف ، في خريف عام ١٩٦٤ ، انتهى الي منه . عنوان جورج صيدح ، هذا الذي نزل باريس ، واجدا بها الاطمئنان المنشود ، متخذا اياها مقامه المحمود ، بعد ان ضاق بغيرها من مدائن الدنيا ، ذرعا .

تلك كانت الفاتحة ...

فاذا انا الج محرابه الهادىء بتهيب وثقة ، واذا هو يجسد ترحابه بي اكراما واعظاما ، مكتسحا كل حدود تصوري وتوقعي .. لعل ذلك كله تمثل في جوابه المؤرخ بالعاشر من آذار عام ١٩٦٥ : « رحبت برسالتك الكريمة النافحة بشذا الادب ، وشكرت عاطفتك النبيلة نحوي ونحو زملائي في المهجر الاميركي معتزا بحسن ظنك بي وبهم . اكبرت همتك في محاولة جمع آثار الدكتور ادهم على قلة المراجع المتيسرة لك . ان القليل الذي عرفته استقيته من كتاب الدكتور محمد مندور « في الميزان الجديد » ودعمت به مكانة الشعر المهجري دون ان اسعى الى المنبع الاصلي ، لان اهتمامي كان محصورا بقضية الادب المهجري لا بأدب كل من شهد له او عليه . مع استعدادي لخدمتك في فرصة اخرى . ابثك تحياتي واخلص تمنياتي » .

هذا كله اغراني بالركون الى توهجات فكره وتفكيره ، ودلالات طيبته وطويته .

وكتحية متواضعة ترهص باللبنة الاولى في هيكل الصداقة الحقة ، تقدمت اليه بمطبوعات واعداد من مجلة « الاخاء » البغدادية ، التي افنيت طرفا من عمري في تحريرها وتطويرها .

على ان دهشة لفت صيدح ، وبصره يصافح مجلة نصفها عربي والآخر تركي .. تتهاوى حياله اطياف وذكريات من الزمن السحيق .. انما ترامت به العهود والحدود عن اللغة التركية ، وقد تعلم منها ما تعلم ، حتى دفعته دهشته هذه ، او بالاحرى اكتشافه كما يرى ، لان يكتب الي في مطلع صيف عام ١٩٦٥ ، من اسبانيا ، اذ يمم شطرها استمتاعا وانتجاعا : « احييك من ارض الامجاد الماضية والآثار الباقية شاكرا لك هداياك التي عرفت من باريس انها وصلت بعد سفري . اما مجلة « الاخاء » فستكون اجمل مفاجأة ابعث بها الى اخواني في المهاجر فادهشهم باكتشاف ادبي طريف جديد ما كان يخطر في ظنهم وجوده في قلب الوطن العربي . دام لك هذا النشاط المثمر ودام لي رضاك .. » .

على اثره جاءتني منه نسخة من كتابه الموسوعي « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » في طبعته الثالثة والاخيرة .. هذا الذي سيبقى ذلك المصدر الحي الثر الذي يرفد بلا انقطاع ابحاث مؤرخي الادب المهجري : الشمالي والجنوبي ، على ترادف الاجيال .

فما كان لي ، وهذا السفر النفيس ، يتمثل بين يدي ، ان اقف ازاءه مكتفيا بتقليب صفحاته بتلقائية ، او الامعان في مطالعته ، بل كان تقييم عمل الدارس المؤرخ

منهجيا ، وانصافه واقعيا ، هو ما بدأ يهيمن على تلافيف فكري طوال ايام ، حتى تمخض عنه مقال نشرته في مجلة « الاخاء » ثم ادرجته في كتابي « نظرات في الكتب » في اواخر الستينات .

وعن للمقال المنشور ان يبلغ صيدح ، اضافة الى مطبوعات اخر منها نسخة من كتابي « من ادب التركمان » .

من غير ان يدع تلك الفرصة الطبيعية ، تفلت من يديه ، حتى يرد : « حياك الله ورعاك ثوابا على تحيتك ورعايتك لي في ما نشرته في مجلة « الاخاء » وفي ما اهديته الي من نفائس الادب مما يعجزني وفاؤه وشكره . ورددت كلمات الشكر لمروءتك واحتفظت في مكتبتي بسفرك الغالي « من ادب التركمان » . اما اعداد مجلة « الاخاء » فقد وزعتها على ادباء نيويورك وسان باولو وبوينس آيرس واتوقع لها اصداء جميلة . ودمت يا سيدي العزيز صاحب الفضل ، وسيد القلم واخا الوداد .. » .

بدات علاقتي بصيدح تنمو وتتطور .. تزدهر وتتجدد عبر زحف الايام تشحنها بطاقات ورسائل متبادلة .. حافلة بأرق مشاعر الولاء والوفاء .. عامرة بثقة واخوة ، كانتا خير معوان لنا في التوصل الى صيغة بناءة من التلاحم الفكري ، والتفاهم الوجداني .. كذلك يغذيها حوار مستدام وساخن حينا في منازع الدنيا من مجد وامل .. وفي مباهج الثقافة من اطلالة وارتشاق .

وقد يكون من غير المقبول ان اطوي كشحا عن تأثير المطبوعات والمنشورات — وهي زاد العقل والقلب — التي كنا نتبادلها دوما بلا كلل وملل ، تأثيرا خطيرا وكبيرا في ترسيخ صداقتنا وضمان مسيرتها على درب الحياة واضفاء الاصالة على واقعها ، حتى لصار اطلاع كل منا الآخر ، على ما كان يجهله ويغفل عنه ، او على ما كان يمكن ان يفوته او يتجاوزه ، لــولا صاحبه مــن شؤون الثقافة وابعادها ، ومسائل الادب وانواعه ، وشجون الخلصاء من الاصدقاء وطموحاتهم امرا مألوفا .. طبيعيا في اغلب الاوقات .

لقد كان صيدح يعنى عناية خاصة بما كنت اهدي اليه من كتب ، ولا سيما مؤلفاتي ، وبما كنت ارسل به اليه من رسائل وبطاقات ، حتى انه لم يكن يتردد في تقييم اي كتاب لي ، من الوجهة العلمية متى ما صدر ، وبمجرد ان تبلغه نسخة منه ، دون ان يتأثر بعامل الصداقة او المداراة .

حين تشرفت باهداء نسخة من كتابي « اعلام من الادب التركي » اليه ، استقبله بتواضعه المحبب ، واقفا منه ذلك الموقف المسؤول ، طارحا رايه ، سائقا حكمه . حيث قال : « تحيات من القلب ونفثات من القلم ، ابعث بها اليك ساعة فراغي من مطالعة كتابك القيم « اعلام من الادب التركي » . هذا الكتاب يفرض على القارىء الاحترام لانه ثمرة جهد موفق مفيد يصلح نموذجا لادب السيرة بدقة التحقيق ورشاقة التعبير ، ويتدارك نقصا في المكتبة العربية التي تفتقر الى المزيد من المعلومات عن الادب التركي بينما هي تغص بالدراسات عن آداب الامم الاخرى ، ابعد الامم عن العرب ، فان اثنيت على المؤلف فثنائي يخرج عــن المجاملات المألوفة في تقريظ الهدايا من الكتب » .

ودارت احوال .. فاذا صيدح يسترسل بعد مراجعته كتابي « كلمات في الرصافي » ناقدا وقائلا : « اما الكتيب « كلمات في الرصافي » فقد التهمته في دقائق معدودات ولم اشعر بسوء هضم لاني لــم اجد فيه مادة اضيفها الى معلوماتي السابقة ولكني وجدت ترديدا لراي الاكثرية في شعر الرصافي مــع حرارة في الدفاع عنه ، وتعصبا في الدعاوة له . امــا المطرب المعجب فهو حسن البيان ، وصادق اللسان . مزيتان يتصف بهما كل ما تكتب وتنشر » .

تجلت سماحة الذات ، وسعة الصدر في اخلاقية صيدح بكل مظاهرها ...

كان يبتاع وفي احايين ، من جيبه الخاص ، كتبا ومصنفات من مؤلفيها ، ليضطلع باهدائها باسمه الــى اوليائه واخوانه ، تجسيدا لآيات ولائه لهم ، واعترافا منه بمكانتهم في نفسه ، كما حصل بالنسبة الى كتاب « فلسطين في ضوء الحق والعدل » الذي الفه باللغة الانكليزية هنري كتن ، وترجمه الى اللغة العربية وديع فلسطين ، وكتاب « الادب العربي المعاصر في سوريا » لسامي الكيالي ، و « مصادر الدراسة الادبية » ليوسف اسعد داغر وكتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » التي ترجمها وعلق عليها عجاج نويهض ، وكتاب « مــن اعلام العرب في القومية والادب » لعبدالله يوركي حلاق وقاموس « لسان العرب » لابن منظور وغير ذلك .

في حين ان دواوينه الشعرية وموسوعته المهجرية ، كان يسخو بها على كل طالب او راغب .. قريب او غريب ، دون ان ينتظر مقابلا في يوم ما ، او يرجو المثوبة من احد .. اما بريده الادبي الذي يرده دائما من الوطن العربي وديار المهجر ويحيره في الوقت نفسه بضخامته ، فكان يسوقه الى معارفه وصحابه ويوزعه عليهم وهم في اقطار شتى ، اعزازا لهم وايغالا في اطلاعهم على ما استجد في مضامير الثقافة والصحافة ، بعد ان يكون قد عرج على هذا البريد واحاط به من كل جانب ، وافاد منه الى اقصى حد ممكن .

ثم اذا اتفق ان ادركت صيدح هدية ما من واحد من عباد الله ، قابلها بالضرورة بأحسن منها ، واذا صادف ان تلقى رسالة او مطبوعا من زيد او عمرو ، اجاب عنه سراعا وبأكرم منه دون ان يتريث او يتعاجز الا لضرورات هي فوق ارادته .. اتذكر كيف بعث الي في اواخر عام ١٩٦٩ حول قضية ادبية كانت تنتظر حلا حاسما منا ، بثلاث رسائل في خلال اربع وعشرين ساعة مما اسلمني الى موج من الدهشة والذهول .. لا لشيء الا لانه يأبى

الاباء كله ان يمسي المقابل اكثر تأدبا منه ، واكبر احسانا .. تلك فطرته .

وما اعرفه اوفر واعمق من هذا ...

صيدح كان شفيقا بأصدقائه الاقربين اليه .. حفيا بشؤونهم وشجونهم .. حريصا على مشاطرتهم ما هم فيه ، يواصلهم بمسراته ويناصرهم بمآثره ، ويناجيهم بلسانه وجنانه ، بباعث من شمائله الغر .

ولئن كان لصيدح اياد متتابعة على اوليائه واحبائه ، فما لا انساه ، ولا يمكن ان انساه ما حييت — اقول هذا للتاريخ والحقيقة — انه اسهم مشكورا في طبع كتابي « شخصيات من الادب المعاصر » الذي قامت مجلة « الضاد » الحلبية باصداره ، وقدم له صاحبها عبدالله يوركي حلاق بدراسة مستفيضة رائعة .

حري بالتنويه بأن كتابي هذا حوى فصولا تحليلية وتعليلية عن عشر شخصيات شهيرة في الوطن العربي والمهجر ، منها فصل بـ « جورج صيدح من خلال شعره » .

والظاهر ان صيدح ازمع على تلاوة الكتاب حين تلقاه من بدايته الى نهايته ، وهو راقد في احد مستشفيات باريس ، حتى دعاه ذلك الى توجيه رسالة مستعجلة الي بالرغم من نصيحة الطبيب له بالامتناع عن كل مجهود فكري وعضلي .. قال : « اما دراساتك فعلى العموم موفقة مركزة يفيد منها العالم والجاهل ، معلومات عن الشخصيات المذكورة ، مشهورة كانت او مغمورة . لاحظ ان المغمور عندي مشهور عند سواي . فأنا انتفعت من فصول قد لا تنفع غيري ، لاني كنت اجهل قيمة حسين فوزي وابراهيم نجا وحسين المصري مثلا ، بينما اطلاعي على آثار الادباء الآخرين يتجاوز بالسعة ما كتبته انت عنهم . اما الفصل المكتوب عني فلا يعيبه الا خلوه من اشارات تضع القارىء في جو القصيدة ، الذي عاشه الشاعر اثناء نظمها ، ومن يقرا الشواهد المذكورة من شعري دون ان يعلم مناسبتها يستهجنها ويملها . اما لو عرف ان هذه المقطوعة نظمت لابنته الواقعة تحت مباضع الجراحين وتلك نظمت في الباخرة التي تنقل المهاجرين العرب الى مجاهل اميركا وتقاوم عاصفة تكاد تقضي عليهم وتلك ينظمها الشاعر امام شلال نياغارا ، وتلك قالها امام بحيرة ليمان ابان منفاه ، لاختلفت نظرة القارىء الى الشاعر والى المعلق » .

ويترامى الى صيدح انطوائي على ذاتي ، اهدهد ذكرياتي واعلك اشجاني ، لوفاة والدي وقد تركني وحيدا في معترك الحياة ، بعد ان علمني كيف اتسلح بالايمان .. بالعلم .. بالشجاعة .

فاذا هو يشاركني لوعتي مخففا من وطأة الخطب والفجيعة .. : « حزنت لحزنك وتعذبت لعذابك . كأني رافقتك في السفر الشاق ، ووقفت معك على قبر الوالد المرحوم المبرور ابكيه بمدمعك وارثيه باسم النبالة المتسلسلة من الجذع الى الفرع ذاكرا من حسناته ما اعرف دون ان اعرفه . وهو النسل الصالح المتمثل فيك وفي اولادك . دمت لهم وداموا لك عوضا عن الغالي الذي فقد وسلوة ترفه عنك مرارة الحياة الدنيا . وهذه الكلمة اليوم ليست الا مجرد عاطفة ترتسم على الورق لترى فيها مشاركتي لك في حدادك ومؤاساتي لزوجتك واولادك .. » .

ثم يزور ناجي جواد : السندباد العراقي المعاصر ، سويسرا كعادته في صيف ١٩٧١ ، فيتواصل عرى الفكر والوجدان بينه وبين صيدح ، نزيل باريس على اجمل ما يكون ، وهل تمثل ذلك كله الا في ما تبودل بينهما من بطاقات ورسائل .. ولكن صيدح يأبى الا ان يصبح ذلك القرين الثمين الذي يتدفق ما يسوقه مناغاة دافئة ، واشواقا عائدة .. وذكرا حميدا ..

اناجي الود في (ناجي الجواد) واسمع منه ما يهوى فؤادي
والهج بالسلام على صديق (وحيد) في الخصال وفي الايادي
ولا انسى (الخليلي) المفدى وهل تنسى غواديها البوادي

من بعد ذلك ، يصدر كتابي « مصطفى جواد : فيلسوف اللغة العربية ، وخططي بغداد الفرد » وابعث منه بنسخة الى صيدح هدية مزجاة ، فما منه الا ان يحتضن الكتاب احتفاء به ، وتكريما لصاحبه ، ثم يفزع اليه قارئا فاحصا توطئة لان يكون له فيه راي بلا رياء ، حتى يزجي الي تحيته المشرقة بلا تكلف : « متعتني بكتابك عن المأسوف عليه : مصطفى جواد . فطيبت نفسي كما طيبت ذكره . وهي اطيب من كلمة ثناء على العاملين المخلصين ومن بادرة وفاء للراحلين الخالدين .. وليست هذه اولى المرات التي يتجلى بها بيانك الصراح بكل رشاقته واناقته في تاريخ سيرة جليلة لعالم جليل مثل مصطفى جواد : « قاضي اللغة العربية وشاهدها ومحاميها » . فقد تعددت آثارك ومآثرك من هذه الناحية ولكن مبرتك اليوم هي في نظري انفع المبرات تحاول فيها تعميم الفوائد التي اقتبستها من استاذك على جماهير من القراء انصافا له وخدمة لهم وقد توفقت في المسعى وبلغت الغاية بهذا الكتاب ، فحق عليهم شكرك والاعتراف بفضلك وانا اولهم .. » .

عبر العام ١٩٧١ نشر الشاعر القروي في مجلة « العرفان » اللبنانية مقالا — لم يكن له داع — نقد فيه صيدح بشدة ، لتغييره سهوا لا عمدا ، بعض الكلمات في ابيات شعرية له ، حين تناوله بالدراسة والبحث في كتاب « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » ، وقد مر على صدور طبعته الثالثة والاخيرة اكثر من سبع سنين ، من ما اثار حفيظة بعض النقاد والادباء على الشاعر القروي ، ناهيك بانزعاج صيدح منه الى انأى الدرجات .

تأكيدا للحقيقة الواقعة ، ووضعا للامور في نصابها رددت على الشاعر القروي بكلمة نشرت في صحيفتين

عربيتين ، ومجلتين مهجريتين(١) ، ما ان قرأها صيدح ، حتى بادر الى شكري بقوله : « عافاك الله وبارك لك في خلقك الرفيع وقلمك البديع . مقالك الموجه الى القروي آية في الاخلاص والانصاف من حيث العاطفة الاخوية وتحفة في التفكير والتركيز من الجهة البيانية . ان امثالك في الحمية والمروءة قليل . وكلهم يغفونني عن الكثير من الاصدقاء الادعياء ثم يستطرد : « ردك على المتحامل موفق كل التوفيق من حيث اللهجة والصيغة والشمول في ما قل ودل من الكلام » .

اذا كان صيدح قد اعجب بردي على القروي ، فانه كما تحقق لدي ، لم يكتف بذلك ، بل عمد في ما بعد الى نظم قصيدة حادة اللهجة صارخة الصورة ، اهداها الى القروي ، ساكبا فيها هواجسه الثائرة ، مشرحا بها بعض شعراء المهجر وادبائه الذين رموه لسبب او لآخر ظلما وعدوانا ، وقدحوا في موسوعته حقدا وحسدا . يقول في المقطع الثالث من قصيدته هذه :

أيا قلمي ان اضعت الرشاد ... فعذرك أني اضعت الرشاد
غمرت بحبي متاهات سربي ... أحيي المغاني واسقي البواد
فلم يرض عني طويل الذنابي ... ولم يعف عني طويل النجاد
وهبني رفعت الثرى للثريا ... فلست بمعطيه ما قد أراد
فمالي أحرك مستنقعات ... ضفادعها لصقت بالسماد
توهمت ان ديوك بلادي ... طواويس تعجب كل البلاد
فكذبني ريشها المستعار ... وكذبني نقها المستعاد
وشر البلية ان الغرابين ... تغدو شواهين غب المعاد
تبيت غدرا فتصمت دهرا ... وتنعق شهرا وتسرق زاد
مزاعمها أنكرتها العقول ... ولو كان زاعمها « السندباد »
فلو شهرزاد روت ما روى ... لقلنا : قد انتحرت شهرزاد

من هنا خرج الشاعر القروي من صمته « المألوف » فأجاب عن قصيدة صيدح العنيفة بمقال(٢) كله عتبى وشكوى ، وضمنه تعريضا بي وبمشايعيه .

غير اني ، وقد بلغت الحال هذا المدى ، لم ارد ان اقف متخاذلا ، سلبيا ، بل افردت مقالا مسهبا جاعلا عنوانه « الشاعر القروي على حقيقته » ، لم يتح له النشر في حينه ، لعوامل كانت خارج الارادة ، في الوقت الذي وجه فيه صيدح الي ، على لسان انيس بقلة ــ وهو احد ادباء المهجر المغمورين ــ مقطوعة شعرية ، هذا مطلعها : (لان الاديب تعتذر عن عدم نشرها)

افتيت صيدح يا وحيد الدين والآن دوري جاء ، هل تفتيني ؟

وتعاقبت السنون .

ونحن في شد وجذب من حيال الفكر .. اقبال وادبار من مرارة الحياة .. اخذ وعطاء من طبيعة الاشياء .

فاذا عيسى الناعوري يخرج على القراء بطبعة جديدة ــ وهي الثالثة ــ من كتابه « ادب المهجر » ، وقد حذف منه واضاف اليه .. عدل في بعض الموضوعات وبدل .. شذب هنا وهذب هناك .

وفي موضوع « جورج صيدح » اشياء جديدة .. وصف بها الناعوري شعره الجديد بالعنترية والخطابية والركاكة والنثرية وما الى ذلك ، من ما قام له صيدح ولم يقعد ، هائجا ثائرا ثورة تكتسح اي شيء .. وتنتهي على المدى القريب الى قصيدة قاذعة في هجو الناعوري ، لعلي اعود اليها في مناسبة اخرى .

على انه لم ينصر لصيدح في محنته التي نالت منه منالا الا بعض من اصدقائه الادباء والشعراء في الوطن العربي والمهجر ، بينما لسبب او لآخر تخلى عنه الآخرون ممن كان يعول عليهم ويثق بهم ويعتمد عليهم ، حتى عاتبهم ولامهم تلميحا وتصريحا عبر الرسائل المتبادلة ، وعلى صفحات مجلة « الاديب » اللبنانية .. بالذات .

بيد انني عندما لم استطع ان اهضم الاهانة الادبية الكبيرة التي حاول الناعوري الحاقها بشخصية صيدح ، وهو العليل المعتكف بدارته الغربية يصارع الموت الزؤام في اخريات ايامه ، كذلك عندما لم استطع ان استسيغ المطاعن الحادة التي اراد الناعوري ان يسددها الى شعره الجديد اسرعت في الرد الايجابي عليه بمقال(٣) منددا بمزاعمه .. مفندا ادعاءاته .. منتصرا بالتالي للحقيقة .

من هنا فاجأني صيدح برسالة شكر وتقدير مؤرخة في ١٩٧٧/١١/٢٣ ، منوها بما توخيت دحضا للباطل ، وانصافا له . ها هوذا يقول بالحرف الواحد : « لست وحيدا باسمك فحسب بل انت وحيد في انسانيتك وفي اريحيتك وفي وفائك لخلانك وفي تلبية الفورية لاعوانك ما اكبر همتك واسرع نجدتك . ما كدت تعلم بافتراء كاتب على اخيك حتى نشط قلمك البارع لرده الى حدوده ببيان مهذب مؤدب يعطيه درسا في اللباقة القلمية بينما يلقمه احجارا منطقية لا يستطيع دفعها بخرافاته (...) والاغرب انه لم يزل يراسلني متشوقا متحببا كأن لم يرتكب اذا في حقي ، ولم يخن عهدي بطعنة في ظهري فجاء مقالك يكشف (...) ويغنيني عن الاسترسال بالدفاع عن نفسي امام القراء .

في نهاية عام ١٩٧٧ نشرت لي مطبعة « بلادي » بسان باولو بالبرازيل كتابا حاملا عنوان « فيليب لطف‌الله : شاعرا وانسانا » ، وتولت اهداء نسخ منه الى كثير من شعراء العروبة وادبائها في الاقطار العربية وعالم المهجر ، رغبة مني في اطلاعهم على ما استجد هنالك ، وتقديرا لما لهم من مواقع في نفسي .

وكان صيدح اول من كتب الي بتسلم الهدية الادبية

---

(١) ــ « الحياة » اللبنانية ــ العدد ٨٢٣ ــ ١٩٧١/١٢/٢٢
« حمص » السورية ــ العدد ٩٩١ ــ ١٩٧٢/١/٢٨
« المراحل » البرازيلية ــ العدد ١٦٣/١٦٢ ــ
« الحياة الجديدة » ــ العدد ٢ ــ شباط ١٩٧٢
(٢) ــ « حمص » السورية ــ العدد ١٠١٧ ــ ١٩٧٢/٨/٤
(٣) ــ « المراحل » البرازيلية ــ العدد ٢٥٧ ــ كانون الثاني ١٩٧٨
« الانباء » البرازيلية ــ العدد ١٤ ــ كانون الاول ١٩٧٧
« العرفان » اللبنانية ــ العدد ١ ــ كانون الثاني ١٩٧٨

من الناشر مباشرة معتزا بما اديته واؤديه من اجل الادب المهجري وتقييم مساعي اقطابه الفكرية والشعرية .. ثم الانسانية ، وموشحا ذلك كله بقصيدة من الطف ما نظمه :

الشاعر الانسان لطفي الله	عزت شمائله على الاشباه
في ثوبه نوح وفي وجدانه	روح مرفرفة على الامواه
سارت شوارده تسابقه كما	دارت محامده على الافواه
ان جاز اشواط المنى نحو الفنى	ما كان بالعاتي ولا التياه
الطائر الحاكي تطرب باسمه	والأبلق الفرد انحنى للجاه
أصبى (وحيد الدين) فهو متيم	متلعثم بسالاه تلو الآه
اثنى على قيثاره ثم انبرى	يثني على ديثاره الزهراه
غيبت في ذهني سطور كتابه	لم أسه الا عن مرام الساهي
أفدي المكرم والمكرم حيرا	عقلي باي الصاحبين اباهي
باركت حظي منهما ، واليهما	أرنو ، كان الفرقدين تجاهي
الله كم خلفت في دار النوى	من آمر في اصفري وناه
ولو استطعت خرجت من شيخوختي	أسعى الى ايوان ذات « الشاه »
ان اللطاف التائبين عن الطلى	لن يسكروا الا بلطف الله

منذ ربع قرن بدأت تتعاور صيدح امراض الشيخوخة حتى كبلته ثم أردته .

فقد المع الى هذه الظاهرة الكائنة في مطلع السبعينات مخاطبا اياي : « ثنيت مكرمتك بالكتابة الي ولما ارد على رسالتك الاولى ، كأنك عرفت عذري قبلما اصرح لك به ، فانا منحرف الصحة ، معتكف في منزلي بسبب مرض قديم ينتابني منذ عشرين عاما واعالجه بالمداراة او بالجراحات حتى اشتد وطؤه علي كما هو حالي اليوم . فللمرة العاشرة في باريس يحكم علي الاطباء باستئناف العملية لتنظيف المثانة وتحرير المجرى البولي . الخطر ليس في اهمية الجراحة بل في وقع التخدير على قلب يخفق متعبا منذ ثمانين عاما ، ويتعرض للمباضع خمس عشرة مرة منذ ١٩٥٣ » .

من هنا اكترب صيدح نفسا .. فساءت حالة وتلاشت احلامه ، وان لم يضؤل نشاطه العقلي وينضب عطاؤه الروحي ، وان لم تتقيد ايضا حركاته وسكناته .

ان حالة من القلق على صيدح والتأثر له ، قد انتهبتني على نحو دعاني معه الى تفقد وضعه الصحي العام في كل ما ابعث به اليه من رسائل ومطبوعات ، بالرغم مما كنت وما فتئت اعانيه من وطأة الضغط الدموي العالي ، واوجس خيفة من الطارئات عبر الايام والاعوام .

غير ان صيدح لايمانه العميق بقسمته في الحياة الدنيا ، وتقبله اي شيء في واقعه برضى وهدوء ، كان يسليني ويلهيني في مكاتباته الطريفة الواقعية ، وهو راضخ لمشيئة القدر ، منتظر ساعته الاخيرة .. يقول في رسالته ١٩٧٥/١/١٠ : « شكرت اهتمامك بصحتي . فاني على حال لا تشكر ولا تذم . اعالج عجزي بالترويح عن النفس واخدر اوجاعي بأوهام المعالجات الشافية وهي غير كافية لدفع الداء ومنع القضاء . كل هذا رغم اعتلالك الذي شغلني عليك اكثر من انشغالك علي . لان مرضي طرأ في اوانه المنتظر لرجل في سني ، اما مرضك فيستلزم العناية القصوى لكي تبرأ قبل ان يزمن . ولو حبست القلم موقتا وارحت اعصابك من هموم الحياة الى ان تستعيد العافية الكاملة ثم تحرص على الوقاية المستمرة لكان انجع من علاج الطبيب » .

هكذا اخذت الشيخوخة تقوده بسكينة الى مصيره المحتوم من جانب ، وتكثف الدنيا من حواليه قتامة من جانب ثان .. على انه ركز على ما جعل يشغل باله ويرهف حسه ويرغبه في معانقة الموت في رسالته ١٩٧٦/٩/٢٨ : « كنت قبلا تحدثني عن مرضك بالضغط الدموي ، فأخالك الآن مشغولا بما هو اهم . اسأل الله ان يريح بالك بعافية زوجك وعيالك ويرد البهجة والطمأنينة الى قلبك . اما انا فعبثا احاول رد العافية الى الجسم المتهدم المتألم . فكلما داويت جرحا سال جرح . وفي مثل سني كل يوم يأتي نوع جديد من الامراض والاعراض . فأحار أيا فيها اعالج . وتصبح امنيتي الخلاص من ربقة الحياة ، ما دامت عزلة وعقما وآلاما تفرضها الشيخوخة على طويلي الاعمار فتجازيهم جزاء سنمار .. » .

وفي اوائل عام ١٩٧٧ سقط صيدح وهو يعالج كعادته في مصح ناء سقطة مشؤومة مروعة كسرت عظما في فخذه وطرحته مسجى على الفراش ستة اسابيع ثم حملوه بعدها الى دارته بباريس في سيارة اسعاف . هناك واصل العناية وشرع بالتمرين على الحركة ثم على الخطو حتى صار يمشي خطوات بلا الم متكئا على عصاه ، مع الصبر على المحن .

هنا بادر بالرد علي في ١٩٧٧/٤/٢٦ بعد ايغالي في التطلع الى اخباره السارة وغير السارة والسؤال عن انقطاعه المريب . فقال : « في تلك الظروف توالت على رأسي صدمات النعوات من سان باولو فحطمت مناعتي الباقية وسلمتني الى الهاوية رغما عن ذلك نظمت في السرير رثاء فرحات ومعلوف كما ترى ، الامر الذي سحق عواطفي ورسم التشاؤم والجهامة على افقي اصبحت زاهدا في الحياة منطويا على نفسي لا استقبل احدا في بيتي » .

مع هذا فاننا لو تركنا الامراض التي طفقت تتألب على صيدح في اعوامه الاخيرة لراينا ان رحيل اصدقائه من شعراء المهجر وادبائه وغيابهم الابدي عن الوجود ضاعفا شدة الامراض عليه،وضخما ارزاء الحياة المتلاحقة والمعتادة حياله ، وزادا نيران القنوط والآلام اشتعالا في اغواره . انظر اليه في رسالة له محررة في ايلول ١٩٧٧ ، وهو يصرح : « فقدت اربعين صديقا من ادباء المهجر منذ عودتي وما زالوا يتساقطون كأوراق الخريف :

تشيعهم عيني وكفي على قلبي	أحاذر ان يستله الوجد من جنبي
تململ ما بين الجوانح سائلا ـ	على وجل ـ ما للجوانح في حرب
وما لبنات الدهر راشت سهامها	على اجدر الاحياء بالعيش في رحب
تغير على الصدر الطعين وتبتلي	اخا الجسد العنين والقلم الخصب
لي الله : كم صحب تولوا ولم ازل	ـعلى الرغم مني ـ لا أولي مع الصحب
وقفت بازهاري على دربهم عسى	ارى بعضهم يوما وقوفا على دربي

ثم ان صيدح ضمن مرثيته لشفيق معلوف ، وقد اهداها : الى اخوانه في البرازيل احياء واموانا هذين البيتين :

يا ابا « عبقر » احسك قربي فاحيي نبوغك العبقريا
في حياتي سبقتني ومماتي عفوك الآن فالتلاقي تهيا

لكنه في ما بعد بقليل ، باغتني برسالة ، يطوف عليها طيف ماء من تفاؤل ، اذ يقول في رسالته ١٩٧٧/٥/٢٨ : « حالتي الصحية محتملة لا مكتملة والله اعلم بما في الغيب القريب من فرح او ترح ينتظرني . اني في دوامة العلل والمعالجات لا احسد طويلي الاعمار على اوضاعهم بل اعتقد لو خيروا لاختاروا الرحيل هربا من العذاب الطويل . امري وامرهم لله لا يحمد على مكروه سواه .

ثم يستطرد قائلا : « وجدت اني لم انظم في هذا العام سوى رثاء فرحات ومعلوف في قصيدة واحدة ثم اضفت حاشية اخيرة لها :

راح فرحات ثم معلوف قبلي رب هب لي ان اسبق « القرويا »

اما هذا البيت فيصور منتهى القنوط الكامن ويعبر عن الاصرار العجيب على وداع الدنيا : ما فيها ومن فيها .. ما لها وما عليها .

ومن الطرافة بمكان ان وديع فلسطين الذي طالما يخلط الجد بالهزل امعانا في التأثير والتكثيف ، علق على هذا البيت بقوله لصيدح : « الاعمار بيد الله . وانني قد اكون سابقا عليك انت والقروي والعجاج في « الرواح » . ولكننا اذا تأملنا الامر من ناحية الفائدة الادبية راينا ان القروي لم يرث فرحات ولا هو رثى معلوف بل لم يقل حرفا في المهزلة الاجرامية في لبنان . وهو بالتالي لن يرثي « صيدحا » اذا ما ازمع الرواح . فمن مصلحة الادب ان يبقى صيدح لكي « يقوم بالواجب » مع القروي ومعي حين يتجهم لنا عزريل » .

رسائل صيدح في عامه الاخير ١٩٧٨ باتت تتواتر ، وهي تنطوي عموما على اخبار غير سارة عنه . تدعو الى قلق متزايد عليه والتفات بالغ اليه .. ومن ما قاله في رسالته ١٩٧٨/٤/١٦ : « عدت من رحلتي الاستشفائية خائبا وهل يصلح العطار ما افسد الدهر . ولكني مستسلم لمشيئة ربي ، مستعد للرحيل الطويل بلا بكاء ولا عويل . لا يجدي خيال في مثل ازمتي ولا حيلة الاطباء ترد سني الى الوراء . المعيشة في بيتي او في المصح سواء . لا ابارح الغرفة هنا او هناك فعلام السفر والعناء » .

وعلى تواتر هاته الرسائل وضآلتها اتسمت بالايجاز والايحاء .. واذا ما تصرم شهر انهى الي صيدح ما كان يخالج خواطره الحزينة ، كما لو كان قد احس بعقله الباطن ، ان نهايته اقتربت ، وان موته قاب قوسين او ادنى .. « الآن اصبحت الكتابة عسيرة علي وقانا الله ما هو افدح » .

والانكى من هذا الذي حدث ، تناهى الي منه بعد فلال من الايام : « اني لا استطيع الاستمرار في المراسلة الى ان يقضى الله امرا كان مكتوبا واسلم لاخيك .. » .

فما كان مني الا ان اوثر السكوت والانتظار على غير عادتي تحقيقا لرغبته ، وتفاديا لمضايقته واحراجه .. ثم رافة بحاله الميؤوس منها .

مع ذلك ، وبلا ادنى توقع ، بوغت في ظهيرة الخامس من حزيران ١٩٧٨ برسالة مطولة من صيدح ، سرد بها : « .. كنت اتوقع من طبيبي اليوم السماح لي بالنزول من سريري الى الشارع ومنه الى البريد الذي فيه رسائلي مع رزمة وضعت فيها كتابا ضخما اتاني من الدكتور عدنان الخطيب واعجبني مضمونه ، فآثرت ان تطلع عليه . آمال ذهبت ادراج الرياح . منذ هذا الصباح . لان الطبيب حكم علي بتمديد العزلة في عقر بيتي بعد الفحص الدقيق فلا امل بالافلات من سجني الا بعد الفحص القادم . عسى تكون النتيجة ارحم واكرم .

واليوم اضطررت بأن اكلف قرينتي بحمل الكتاب مع رسالتي الى مصلحة البريد امعانا في تحميلها ما لا يحتمل من شؤون معالجتي ليلا ونهارا ، ولكن هل في وسعي حيلة اخرى .. ومن كتبت عليه خطى مشاها ، دون ان يعلم منتهاها .. » .

وتلك كانت الخاتمة ...

* * *

في عصر يوم الجمعة العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٨ ، وهو اول ايام عيد الاضحى المبارك .. هاتفني يعقوب افرام منصور ، مزجيا الي بادىء بدء تهاني العيد ، ثم منهيا الي بهدوئه المعهود نعي صيدح ، وقد ادركه من احد اصدقائنا المشتركين .

بهت في مكاني لا اريم .. فاذا الكلمات على لساني ، واذا موجة من الكآبة والصمت تتلبسني .

وفي اليوم الثاني زرت جعفر الخليلي بمناسبة العيد ، فتساءل في غمرة الحديث اما جاءك نعي صيدح ؟ !

— بلى .. امس .

ومن ثم نعاه الي وديع فلسطين برسالة موجزة مستعجلة تقطر اسى واسفا .

هكذا تناهت الي وفاة صيدح .. لكن بعد شهر .

وابكيه واحزن على وداعه الابدي حزنا هو دائم متجدد .. وسيطول حزني عليه .

لقد كان انسانا قبل ان يكون فنانا .. في ذمة الرحمن يا انبل الخلان .

بغداد وحيد الدين بهاء الدين

الحب الاول

*

مضت عشرون عاما يا حياتي ... وطيفك في دمي في كنه ذاتي
عيونك لا تزال ترف حولي ... نجوما في الليالي الحالكات
وثغرك بارق البسمات جرح ... بقلبي نازف أبد الحياة
وشعرك لا يزال يلف عمري ... كليل مطبق فوق الفلاة
وروحك لا تزال تبث روحي ... حديثا خافتا كالمبهمات
حوار بيننا لا زال يجري ... كأنا لا نزال على صلات
حوار عيوننا لما تناجت ... بتلك الامسيات الحالمات
حوار قلوبنا من غير نطق ... سوى خفق العروق النابضات
لفات بيننا شتى تعالت ... على كل الحروف من اللفات
حديث يهمس البسمات فيه ... فنصغي للشفاه الهامسات
حديث تشرق الاعماق فيه ... بآلاف النجوم النيرات

هوانا لا يزال به صبانا ... جديدا كالورود الناضرات
سنين ما درينا كيف مرت ... كلمع البارقات الخاطفات
احقا مرت العشرون تترى ... على تلك الليالي الدافئات
ومجلسنا وتبغ أبيك يعلو ... بأنفاس المساء العاطرات
وأمك في حكايات الاماسي ... سرت بين القصور الشامخات
ونختلس التناجي من عيون ... تغيم بدمعها كالمجهشات
ونسترق ابتسامات عذابا ... كأزهار الربيع الناديات

رنوت الي في شغف حزين ... بأعينك الظماء الذابلات
بليل سوادها لمعت أماني ... نجوم عوالمي في خاطراتي
أماني عمرنا الآتي بانا ... سنسعد في زمان فيه آت
أتى يا حسرتي ومضى غبارا ... على وجه السنين الغابرات
حلمنا بالحياة معا وعشنا ... خيالا في الليالي المؤنسات
وكانت يومها الاقدار تلهو ... وتسخر بالاماني المقبلات
تسجل عكس ما نبغي فراقا ... طويلا كالليالي الدامسات
فراقا بعده العشرون قامت ... كأطواد ضخام عاتيات
فراقا لم يكن فيه لقاء ... سوى أحلام ليل زائرات

مضت عشرون عاما يا حياتي ... وغض هواك يورق في مواتي
وتسري نسمة الحسرات فيه ... فتسقط منه أعذب امنياتي
خريفي لا يزال به ربيعا ... برغم عواصف من كارثاتي
أفيء الى الظلال به وأفنى ... بلحظات الهنا من ذكرياتي
وحبك من شراب الخلد اجلو ... به طعم المصائب من لهاتي
أعيش على بقايا من غرام ... ستحيا في بقايا من رفاتي

نزيل السعودية — علي دمر

المربية القومية
وداد المقدسي قرطاس

١٩٠٧ — ١٩٧٩

بقلم عجاج نويهض

* * *

يوم امس في التاسع من نيسان ١٩٧٩ فقد فن التربية الوطنية الصحيحة للبنات والبنين ، استاذة رائدة ، عربية لبنانية ، عالية الطبقة والمستوى ، امتدت شهرتها الى كثير من الاقطار العربية لسببين : اولا لما فطرت عليه من الاخلاق الرضية الممتازة ، ارثا وانسيابا اليها من والديها ، المربي المشهور في الجامعة الاميركية الاستاذ جرجس الخوري المقدسي ووالدتها الجليلة . وثانيا لعكوفها على ممارسة رسالتها اكثر من اربعين سنة شوطا واحدا ، منذ ١٩٣٣ — ١٩٧٤ في « مدرسة البنات الاهلية » في بيروت . وهي زوجة الاستاذ اميل قرطاس ولهما ثلاثة شبان وفتاة .

واليوم في ٢٠ نيسان سار موكب جنازتها المهيب من مستشفى الجامعة الى برمانا في الجبل حيث صلي عليها ودفنت في مثواها الاخير رحمها الله .

ولسنا نبتغي بكلمتنا هذه استيفاء سيرتها مفصلة ، وانما نقتصر على نواح من شخصيتها المليئة علما وادبا ، وحكمة وخبرة ، ولدينا مذكراتها التي طبعتها قبل نحو ١٧ سنة وهي مذكرات واعية غزيرة الملاحظات الطيبة ، تسري فيها الروح القومية العربية بغزارة . والفقيدة اهل لان يشملها التكريم على اوسع نطاق ممكن ، وتقام لها حفلات التأبين ، واول ما يتبادر الى الذهن من تخليد ذكراها وضع سيرة وترجمة لحياتها توضع بأيدي الناس والنشء من بنات وبنين ، وخاصة بأيدي المهتمين بأمور التربية والتعليم في لبنان ، وجدير برسمها ان يرفع في قاعة دار الكتب الوطنية اللبنانية . وقد مضت هذه الفقيدة العاملة الى رفيقاتها اللواتي رفعن مشاعل النهضة النسوية ، وكثير منهن كن يزرننا في المدرسة ، من سلمى صائغ صاحبة كتاب « النسمات » ، وماري عجمي صاحبة مجلة « العروس » ، ونازك العابد زوجة المؤرخ الاستاذ جميل بيهم ، وهي رائدة بخدماتها الوطنية الاجتماعية في دمشق وبيروت ، و « مي » زيادة حادية القافلة ، وجوليا دمشقية صاحبة مجلة « المراة الجديدة » ، الى غيرهن كثير . وتنضوي اليوم الى هذا الرعيل النسوي العامل المبارك ، فقيدة التربية ، الرائدة الماهرة ، وداد المقدسي قرطاس ، فلها لواء في التربية الوطنية هي حاملته .

عرفت السيدة وداد منذ ١٩٦٠ بعيد عودتي من فلسطين والاردن الى لبنان ، وهي مديرة « المدرسة الاهلية للبنات » معرفة لا سطحية عابرة بل عميقة واسعة . وكنت كلما ازددت علما بعناصر شخصيتها الكاملةكنت اكتشف مناحي في هذه الشخصية المتأثرة كثيرا بالهدى الذي كان يأتيها من ابيها الاستاذ جرجس المقدسي ، وكان رحمه الله مثلا اعلى في العلم الصحيح الخالي من التأويلات الفارغة ، وذا بساط واسع فريد في نقي الحديث ومختاره ونكته ، وكل مؤلفاته تدل على هذا ، وتلامذته في العالم العربي يعدون بالمئات او بالالوف . وبعد ان جعلت اعرف الفقيدة بقليل ، اصدرت مذكراتها الانيقة الجميلة الترتيب جدا ، « دنيا احببتها » في ٢٢٨ صفحة بحجم واف وطباعة متقنة وغلاف فني . ويهمني ان اعلم القارىء الكريم بكل حرص ان شخصية المؤلفة انبثت في صفحاتها وعباراتها انبثاثا عجيبا ، فاذا كان الاسلوب والطريقة هما صورة ذهن الكاتب ، فالسيدة وداد قرطاس صفحاتها « لوحات » ذهنها في اي باب كان . فهي صادقة مع نفسها ، مع الميراث من ابيها وامها ، مع كل افكارها وآرائها .

وكما يؤخذ من تسجيلاتها في مذكراتها هذه المفعمة بالبراءة ، انها بدات تستيقظ استيقاظا وطنيا قوميا عربيا ، وانسانيا منذ الحرب العالمية الاولى . فقد ولدت سنة ١٩٠٧ ، ويؤخذ من كلامها هنا وهناك ان مما اقتبسته من والديها الفاضلين ، النظر الى الانسان ، كائنا من كان ، من حيث هو مخلوق بشري انساني ، قبل النظر اليه من خلال حواشي العقيدة الدينية . واستطيع ان اقول ان الفقيدة استفادت هذا من والديها استفادة الطالب من الدرس الذي يستقر في ذهنه منقوشا ، فتأخذ هذا منهما عن طريق الملاحظة المناسبة مع الرغيف والماء صباح مساء ، وفي الغدو والآصال ، والحل والترحال . ولذلك كانت السيدة وداد تفهم عوارض المجتمع فهما علميا ، لا مؤولا بالعادات والتقاليد التي لا تلتئم مع حكم العقل . قالت في ص ١٦ و ١٧ ما ارى ان انقله بحروفه كما يقولون :

« سكن في حينا (رأس بيروت) اثنان اسم الواحد خليل والآخر حسن . كانت والدتي تبتاع اكثر لوازمها من حسن ، فعاتبها خليل قائلا : اتتركين ابن مذهبك وتشترين من الغريب ؟ فأجابته : ان ابن مذهبي هو من يخاف ربه ، وعنده ذمة ووجدان » . ثم قالت صاحبة المذكرات السيدة وداد ، ويظهر انها في ذلك الوقت كانت لم تزل في سن النشأة : « فاستفسرت من والدتي اذ ذاك عن كلمة « ذمة » و « وجدان » فأجابت هذا امين ، وذلك يتلاعب بالاوزان » .

الفقيدة من متخرجات الجامعة الاميركية سنة ١٩٣٠ بشهادة ب.ع ثم تخرجت من جامعة ميتشغان (اميركا) بشهادة م.ع ثم تسلمت ادارة المدرسة سنة ١٩٣٣ حتى ١٩٧٤ اي ٤١ سنة شوطا واحـدا في مضمار التعليم والتهذيب للبنات ، وللبنين المبتدئين (التعليم مختلط في الابتدائي) ولدي بعض الرسائل منها واجوبتي اليها منذ نحو ١٧ سنة ، واهدتني مذكراتها فاطلعت عليها بلذة وعناية واليوم قبل ان جئت اضع هذه الكلمة ، وحفلة دفنها تقام ظهرا في برمانا مقابل قريتي رأس المتن ، وما بيننا الا وادي « نهر الجمعاني » ، راجعت مذكراتها وسابق مراسلاتها ، فوجدت ان خير ما اضع في نقل صورة من شخصيتها الروحية المعنوية الى القارئة والقارىء ، ولا سيما خارج لبنان في العواصم العربية ، علـى جناح « الاديب » الجواب للآفاق ، ان احدثهما عن انطباعاتها كما سجلتها في هذه المذكرات تتناول المدة من ١٩١٧ — ١٩٥٧ وهي قامت بسياحات في لبنان وسورية والاردن والعراق واوروبا واميركا .

واول صفحاتها سياحات الى وسوط لبنان واعاليه للمشاهدة او الاصطياف . ولكن وهي في السابعة من عمرها تذكر خروجها مع رفقة « للتفرج » على الطيارين العثمانيين « فتحي وصادق » اللذين جاءا بيروت ثم عادا الى دمشق وتوجها الى فلسطين فلما وصلت بهما الطيارة الى قرب سمخ جنوبي طبرية ، هوت في جيب هوائي فتحطمت فتوفيا فورا ، فكانا اول شهيدين عثمانيين في عالم الطيران وذلك في شباط ١٩١٤(١) . ثم تذكر في هـذه الصفحات الاولى تحت عنوان « الملك العظيم » انطباعاتها عن مرور فيصل بن الحسين ببيروت الى باريس وعائدا منها . كما تذكر رفع « العلم العربي » في بيروت لمدة قليلة ثم انزل ثم تعرج على « يوم ميسلون » وتلتقط ثلاثة ابيات لحليم دموس في « فيصل » :

اضاعـوه وأي فتـى اضاعوا	اضاعوا القلب واليد والحساما
اضاعـوه وكـان فتـى هماما	وبالاوطـان صبـا مستهامـا
فـودع في الدجى تاجا وعرشا	ومملكـة وآمـالا جساما

وتقول ان اول استيقاظها بالشعور الوطني القومي ، كان على قصائد عمها الاستاذ انيس الخوري المقدسي ، فقد كان ممتازا بوقفاته على الانهار التاريخية في ديار الشام خاصة وقوفا يجري فيه على اوتار محببة لروح العربي في ذكرياته ذات الشجن في النفس المشرئبة الى استئناف المجد ، ولعله في هذه الناحية متفرد ، وكتبه تشهد بهذا فالاستاذ انيس الخوري المقدسي من موقظي الشعور القومي ولا جدال .

ثم تذكر المؤلفة هياج البلاد لما جاء بلفور يمر بها مرورا ، فبذلت السلطة الفرنسية جهدها حتى جعلت خطة انتقاله سرية مخفية عن الناس .

وذهبت الى دمشق ، ظئر العروبة ، واول ما زارت الجامع الاموي وقبر صلاح الدين وعليه اكليل البرونز الذي وضعه عليه الامبراطور غليوم لما زار القدس وفلسطين وبيروت ودمشق سنة ١٨٩٨(٢) ، وزارت ضريح خالد بن الوليد في حمص ، ووقفت على العاصي وهزجت للنواعير في حماه ، وذهبت الى المعرة وانحنت اجلالا لابي العلاء الفيلسوف الاجتماعي الضرير ، ثم جاءت تدمر وتخيلت زنوبيا ملكة الشرق بابهة لا نظير لها اليوم ، وانتهت السيدة وداد الى الارز الخالد ، وتذكرت قول الريحاني : « اتخيل الجبل في ظل الارز فألفيت الارز في ظل الجبل » . وخاتمة المطاف وادي قاديشا ، وطرابلس وبساتينها ، وفي فترة اخرى ذهبت الى عكار وشاهدت معالمها .

ثـم اتجهت في رحلة اسفار الـى الجنوب فمرت بالشويفات والدامـور وصيـدا ومرجعيون والليطانـي وحاصبيا وخلوات البياضة وجلست هناك مع الشيوخ في ظل الشجر والنسيم العليل ، ووقفت على التلال حيث تنساب منابع الاردن : الحاصباني واللدان وبانياس .

حدثتنا عن التعليم المختلط فقالت لم يكن المجتمع اول الامر راضيا عن هذا(٣) . وذكرت العمل في سبيل مكافحة الامية ، واثنت جميل الثناء على حفلات المولد في بيروت ، وعلى جمعية « العروة الوثقى » في الجامعة تحرك الشباب وتدفعهم الى الامام وحاديهم شاعرهم ابراهيم طوقان . هذا في اوائل الثلاثينات فلم تنس ان تنوه بما كان لسياسة غندي في الهند من حسن الصدى هنا ، والتباهي بطاغور شاعر الهند الاكبر وخاصة بعد نيله جائزة نوبل العالمية . وجاء ٢ نوفمبر فثارت موجات الاستنكار على وعد بلفور .

ويستجيش منها عواطف الشعور القومي عندمـا كانت تقام في لبنان حفلات التكريم لشوقي والمطران وحافظ، وتنشر القصائد والمقالات الرنانة في تمجيد العربية ، وتذكر من هؤلاء الزهاوي والمطران وفياض والزيات وشادي ودموس .

واحبت المربية الاديبة وداد المقدسي قرطاس ان تصف شوقي امير الشعراء فقالت :

« كان شوقي عربيـا في اندلسياته ، مصريـا في فرعونياته ، مسلما في عقيدته وايمانه ، مسيحيا في روحانياته ووجدانه ، شرقيا في ميوله ، غربيا في تصوراته ، قديما في محافظته وتقليده ، عصريا في توثبه وتجديده ، وهكذا جمع امير الشعراء صفوة التعابير الشعرية والروحية التي تقربها من تراثنا الخالد » اهـ. فانظر الى هذه « اللوحة » الفريدة حقا الصادقة معنى .

والمذكرات كلهـا رحـلات وخواطر وملاحظـات وانطباعات . ورحلت المؤلفة الى اميركا واوروبا وحضرت مؤتمرا في جنيف مع ممثل لسوريا وآخر للاردن ومما يلاحظ في اسلوب تسجيلها الانطباعات والاخبار انها قلما تأتي

حنين وذكريات

سألتك يـا ربوع متـى يؤوب ... وهـل ينسى العتاب ويستجيب
أحن الـى لقاه ، اليـه أهفو ... ففـي دنيـاه الحاني تطيـب
وانشـده تباريحـي ووجـدي ... ولكـن لا يـرد ولا يجيـب
فـلا ازهاره عطفـت ومالـت ... ولا فاحت لنـا منهـا طيـوب
ولا انسامـه هبـت وسارت ... وعهـدي بالنسيم لـه هبوب
ولـولاه لمـا وهنـت ضلوعي ... ولا ازف الترحـل والمشيـب
ويحسدني علـى حبـي عذول ... ويمعـن في رقابتـه رقيـب
فهل عرف الهوى والشوق قلبا ... ينـوء وفي محبتـه يـذوب
يجـور عليـه يسرف في اذاه ... ومهمـا جـار عنـه لا يتوب
عبرتك يا دروب وكنت اخشى ... مـن العثرات تزرعها الدروب
وقلـت غـدا تعاودنا الاماني ... ويطلـع فجرنا الزاهي الحبيب
ونرجع للمرابـع بعـد هجـر ... نطـوف وفي مغانيهـا نجـوب
اموت غدا فـلا تبكي القوافي ... ولا يسعى الـى قبري نسيب
اموت كمـا يموت هزار دوح ... بعيـد عـن مرابعـه غريـب
رمتـه الحادثات ومـا توانت ... وأصمتـه النوائب والخطـوب
« وهل للاسد في الآجام عيش ... اذا وهـت المخالب والنيوب »

سلمية ـــ سورية

عارف تامر

على ذكر اسماء اشخاص او تواريخ الحوادث ، حتـى المؤتمر الدولي الذي حضرته في جنيف لم تذكر لنا غايته .

ولعلنا نوفق الى وضع كلمة اخرى ، نجول فيها جولة اخرى الى نهاية المذكرات ، والآن لم نجاوز اكثر من ثلثها .

رحـم الله المربية القومية وداد المقدسي قرطاس ، وجزاها خيرا واسكنها جنان النعيم ، وجعل سيرتها لنا خير نبراس .

---

(١) ـــ حادث « فتحي وصادق » يحتاج الى بعض الايضاح والتعليق ، وقد مضى على ذلك ٦٥ سنة فلا يذكره اليوم الا المعمرون في بيروت ولبنان . وان صاحبة المذكرات انما اشارت اليه من قبيل الذكرى ، فنقول ، وكنا وقتها ايام الطلب في مدرسة برمانا ، ان هذين الطيارين شاء العرب في لبنان وسورية ، وفي بيروت كما في دمشق ، ان يعتبروا الحادث مصابا وطنيا عثمانيا ، فاقاموا لهما حفلات التابين ، وانبرى كبار الشعراء العرب ، الى التابين الصادر من اعماق القلوب . ولدي كراس في ٣٢ صفحة احفظه من تلك الايام عنوانه « دموع الاسى » يتضمن وصف الحادث ، وترجمة الطيارين ، وقصائد شعراء لبنان وجمع هذا الكتيب « الياس افندي نقولا الظاهر » وطبع بمطبعة جدعون ١٩١٤ وثمن النسخة بشلك واحد (نصف فرنك) .

وانما شاء العرب اعتبار الحادث مصابا وطنيا عثمانيا لعدة اسباب ، منها ان الشهيدين وقد انتشرت رسومهما في الصحف والمجلات وفي اوراق مفردة على حدة ، كانا اول ضحية في هذا المضمار ، فاعتصرت نكبتهما القلوب اعتصارا . ثانيا ، كانت التيارات السياسية وقتئذ تتضمن المفاوضات بين ممثلي زعماء العرب الشهيد السيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي الاول في باريس قبل بسبعة اشهر (حزيران ١٩١٣) والشهيد عبد الكريم الخليل ممثل المنتدى الادبي والشبيبة العربية في اسطمبول وبين زعماء الترك ، وغاية المفاوضات الاتفاق على الاصلاح في سورية وبيروت (لبنان) . ثالثا ، ومع انه كان ربما يكمن وراء رحلة « فتحي وصادق » اشياء سياسية من قبيل التلويح للعرب بان « الدولة » الى قوة لا الى ضعف ، فقد آثر العرب اعتبار المصاب وطنيا .

اما الشعراء الذين جمعت قصائدهم في كتيب « دموع الاسى » فهم حسب ورود اسمائهم في الكتيب : شبلي الملاط ، وامين ناصر الدين ، ومصطفى الغلاييني ، وسعيد عقل ، وانيس الخوري المقدسي ، والياس فياض ، وبشارة عبدالله الخوري (الاخطل الصغير) ومن شعراء مصر ولي الدين يكن . واما قصائد حافظ وشوقي وغيرهما وقصائد شعراء سورية والعراق فلم تدخل في هذه المجموعة . ودفن فتحي وصادق في دمشق بجوار قبر صلاح الدين .

ومن سوء الطالع انه في ١٩٧٦/٩/٢٠ سقطت طائرة ركاب تركية قرب انطاكية وقتل ١٥٤ شخصا اكثرهم ايطاليون وألمان فكانت نكبة انسانية عظيمة ، ولكن مما لوحظ في برقيات هذا النبا المفجع ان سقوط الطائرة كان على جبل اسمه « الجبل الحزين » وقرب قرية اسمها « قرية الدموع » . ولله الامر من قبل ومن بعد . وانا لله وانا اليه راجعون.

(٢) ـــ هذا الاكليل هو منذ خريف ١٩١٨ في المتحف البريطاني فيحق لسوريا ان تطالب به وتسترده ، وقصته الثابتة ان الكولونل لورنس المشهور في الليلة الثالثة لدخوله دمشق اخذ ثلاثة جنود بريطانيين وتسلل بطريقة ما الى قبر صلاح الدين وانتزع الاكليل وارسله الى لندن . راجع العدد الاول من مجلة « العرب » المصورة الاسبوعية ٢ ايلول ١٩٣٢ في القدس لكاتب هذه السطور .

(٣) ـــ في دمشق احتج الجمهور سنة ١٩١٩ على ساطع الحصري وزير المعارف لان طالبات المدارس يلبسن فساتين رياضية قصيرة حتى الركبة .

رأس المتن ـــ لبنان

عجاج نويهض



ايليا حليم حنا

مع السيدة فاطمة اليوسف في ذكرياتها الصحفية

بقلم ايليا حليم حنا

* * *

في كتابها (ذكريات) تحدثنا السيدة فاطمة اليوسف منشئة (روز اليوسف) عن متاعب الصحافة ، وعن عدد من الكتاب والادباء والشعراء الذين احتكت بهم في عملها الصحفي ... وكان طابعها في ذلك الصراحة والصدق والبساطة في سرد الاحداث .

لقد قالوا ان الصحافة هي مهنة البحث عن المتاعب ... ولكن السيدة فاطمة اليوسف تقول انها مهنة قاسية ولكنها ممتعة في نفس الوقت ، وتحدثنا عن متاعبها والصعوبة الكبرى في اصدار المجلة والتي كان عليها ان تجتازها فتقول : « لم تكن هذه الصعوبة الكبرى في القليل من المال ، وفي الجهد المضني ، ولا سوق الصحافة الضيق . بل كانت تتلخص في انني سيدة ، كانت هذه في الواقع مشكلة المشاكل ، وكان علي ان اجتاز تجارب قاسية وان اتعلم دروسا قاسية » .

ويحدثنا الاستاذ احسان عبد القدوس عن والدته (السيدة فاطمة اليوسف) فيقول : « لم تكن غنية يوم ولدتني ويوم نشأت في رعايتها ، ولا كان ابي غنيا ... وهي التي علمت نفسها القراءة ولم تدخل مدرسة ، وهي التي التقطت دروس الفن وجعلت من نفسها (سارة برنار الشرق) كما اطلق عليها نقاد ذلك الجيل . وهي التي دخلت ميدان الصحافة وفي يدها خمسة جنيهات وانشأت مجلة تحمل اسما يكاد يكون اجنبيا ، وهو الاسم الذي اشتهرت به على المسرح — فاستطاعت ان تجعل من هذه المجلة اقوى المجلات في الشرق ... » .

وتحدثنا صاحبة الذكريات عن قصة اصدار (روز اليوسف) فتقول انها قصة تصميم واصرار وصبر ... نبتت فكرة المجلة في محل حلواني اسمه (كساب) كان يوجد في المكان الذي تشغله الآن سينما (ديانا) وكنت جالسة ساعة العصر مع الصديقين (محمود عزمي) (واحمد حسن ابراهيم خليل) نتحدث عن الفن ... وتطرق الحديث الى حاجتنا الشديدة الى صحافة فنية محترمة ونقد فني سليم يساهم في النهوض بالناحية الفنية ... والقيت بفكرة اصدار مجلة فنية على الزملاء فأخذوا يحملقون مدهوشين ، وكانت اللهجة التي تكلمت بها كافية لاقناعهم بأنني جادة ، ولم يكن بيننا من له اتصال بالصحافة الا ابراهيم خليل الذي كان يعمل في جريدة (البلاغ) ويصاهر عبد القادر حمزة ... فسألته كم يتكلف اصدار ثلاثة آلاف نسخة من مجلة (ملزمتين) على ورق انيق ؟ واخرج ابراهيم خليل ورقة وقلما واجرى حسبة بسيطة ، قال لي بعدها ١٢ جنيها ! ثم اعمل قلمه في الورقة مرة اخرى وقال : فاذا بيعت النسخ كلها كان صافي الربح في العدد الواحد خمسة جنيهات ... وبدا لي الامر قريبا ممكنا فالمبلغ ليس باهظا كما كنت اتوهم ... وطرحت على الزملاء سؤالا ثانيا : ماذا نسمي المجلة ، وتوالت المقترحات بالاسماء الادبية والعلمية والفكاهية ، وللمرة الثانية فاجأتهم باقتراح عجيب ، لماذا لا نسميها : (روز اليوسف) ؟ وكنت جادة في هذا الاقتراح ايضا ، فهذا هو الاسم الذي اشتهرت به وعرفه الناس وهو اسم عزيز علي ، احب ان اضعه على عمل كبير اقدمه الى هؤلاء الناس الذين تعلقوا به .

قضيت ليلتي ساهرة منبهة الاعصاب ، تعصف بي المشاعر المتفاوتة وتخفق الآمال في صدري كالبروق ، وتقدمت الى وزارة الداخلية اطلب ترخيصا ... وفي نفس اليوم بدأت اتصل بأول المحررين الذين سيشتركون معي في اصدار المجلة الصديق (محمد التابعي) وكان التابعي في ذلك الوقت موظفا في مجلس النواب ويكتب النقد الفني لجريدة الاهرام .

وكنت في ذلك الوقت اسكن في شارع جلال بيتا يملكه

المرحوم الشاعر (احمد شوقي) في شقة مرتفعة فقررت اتخاذها مقرا مؤقتا للمجلة ... وبدأنا نعمل لاصدار العدد الاول بكل ما في اجسادنا واعصابنا من قوة ... حتى انطلق الباعة ذات صباح يصيحون (روز اليوسف ... روز اليوسف) !

وبعد ان تحدثنا (المؤلفة) عن الصعوبات التي واجهتها بعد صدور العدد الاول ، تقول : بدا الموقف في اول الامر مشكلة لا تقبل الحل .. حتى نبتت فكرة توزيع الاشتراكات .. وطبعنا الدفاتر بسرعة وبدأنا التوزيع ... واذكر بين من عاونني في توزيع الاشتراكات (الدكتور محمد صلاح الدين) ، والممثل الكبير الاستاذ (زكي رستم) ولم يكن قد اشتغل بالتمثيل بعد .

واذكر ايضا ان (الآنسة) ام كلثوم دفعت اشتراكا واخذت بقية الدفتر لتقوم بتوزيعه على اصدقائها ... وتوالت الاعداد في الصدور ... واستطعنا ان نجمع في الاعداد الاولى مقالات لعدد لا بأس به من كبار الكتاب في ذلك الوقت مثل (ابراهيم عبد القادر المازني ، وعباس محمود العقاد ، وابراهيم رمزي ، ومحمد لطفي جمعة ، وزكي طليمات ، وحبيب جاماتي ، واحمد رامي) ... وكان هؤلاء الكتاب والشعراء جميعا يكتبون بغير اجر الا ان يساهموا في اقامة بناء مجلة للادب والفن ، اما نحن اسرة التحرير الاصلية فقد كنا نعمل بلا مكسب ولا اجر وبلا راحة ايضا ، وكنت اقتر على نفسي واستغني في حياتي عن الضروريات لكي اوفر للمجلة قروشا تعينها على الصدور ... كان التابعي لا يسير الا وقد انتفخت جيوبه بالكلشهات بين الورشة والمطبعة ، وابراهيم خليل يقطع عشرات الكيلومترات على قدميه وراء الاشتراكات والاعلانات ... وكان الصباح يشرق علينا انا والتابعي في مطبعة البلاغ نسلم المقالات ، ونأخذ البروفات الى مقهى قريب — مكان بار الانجلو حاليا — حيث نجلس ... يطلب التابعي (...) بخمسة عشر مليما .. واشاركه انا في التهام (المزة) فاذا لم تكف المزة لطعامنا — بعد الاشتباك مع الجرسون لاقناعه بزيادة كميتها — ارسلنا نشتري ساندوتشات الفول الواحد بقرش تعريفة ... وفي اثناء ذلك يتم تصحيح البروفات ثم نعود بها الى المطبعة ... وقررنا الا يدخن جميع افراد اسرة التحرير الا سجاير (صوصة) التي كانت توزع مع كل علبة كوبون ، وكل من يجمع عددا معينا من الكوبونات يستبدلها بهدية يختارها .. حتى اجتمع لنا عدد نستطيع ان نأخذ به دراجة .. وكانت الدراجة هي اول وسيلة للمواصلات اقتنتها المجلة ... وكان يوم حصولنا عليها يوما عظيما .

وفكرت في ان تصبح (روز اليوسف) مجلة سياسية فالمجلات الفنية سوقها محدود .. وقد بدأت منذ سنوات اهتم بالسياسة واسعى الى حيث يخطب (سعد زغلول) واسمعه واقرأ تطورات الحركة الوطنية ، وانفعل واتحمس لكل تظاهرة تنطلق في الشوارع هاتفة بالاستقلال التام وخروج الانجليز .

ولم توافق وزارة الداخلية على تحويل (روز اليوسف) الى مجلة سياسية ، ولم اكن مستعدة للتخلي عن حلمي بسهولة ... ذهبت لمقابلة (احمد زيور) رئيس الوزراء وكان رجلا طيبا جدا من طراز لم تشهد المناصب مثله ، كانت الدنيا تثور من حوله وهو لا يهتم ، تهتف المظاهرات ضده وتطالب الجماهير بدمه ، وتنسب اليه الصحف اعنف الاتهامات ولكنه يظل في عالمه الخاص ، لا يشهد المظاهرات ولا يهتم بالجماهير ، ولا يقرأ الصحف قط ! وكان اذا قيل له ان جريدة تهاجمه قال : (خليها تاكل عيش) .

ظلت ادارة المجلة فترة من الوقت تشغل حجرة من شقتي الخاصة التي كنت اسكنها في شارع جلال ، والتي كانت ترتفع عن خمسة وتسعين درجة .. وكان المرحوم الشاعر احمد شوقي — صاحب العمارة — يعدني من حين لآخر بتركيب مصعد دون جدوى ، وفي هذه الشقة كنا نقيم من حين الى آخر سهرات يجتمع فيها الادباء والنقاد .

اقمنا ذات ليلة حفلة كبيرة كلفتنا ثمنا ناءت به ميزانية المجلة في ذلك الوقت ... وهو خمسة جنيهات ... فقد اردنا ان نحتفل باحدى المناسبات وقررنا ان ندعو الى السهرة شوقي ، والعقاد ، والمازني ، وتوفيق دياب ، وبعض الكتاب الآخرين ... وكان العقاد والمازني في ذلك الوقت يتزعمان حملة شديدة على (شوقي) ، ويضعان انتاجه الفني على مشرحة النقد العنيف ... وكان اجتماعهم يبدو امرا مستحيلا ، ولكنهم اجتمعوا ... ودعوت ايضا الاستاذ (محمد عبد الوهاب) وكان ما يزال ناشئا ... وفي جو السهرة الجميل وتحت تأثير انشاد عبد الوهاب الساحر تصافى الادباء الكبار .. وتحدثنا عن متاعب الادارة في هذه الشقة المرتفعة وقال لي (شوقي) : ان العمارة المقابلة — وكانت مملوكة له ايضا — قد خلا فيها (بدروم) يهبط عن الارض بحوالي عشر درجات .. عبارة عن حجرتين متداخلتين ، وعرض علي (شوقي) ان استأجرها بجنيهين بالشهر ... وقبلت هذا العرض على الفور .

وكان المرحوم (احمد شوقي) يتخذ جلسته المختارة ساعة العصر من كل يوم في المجلة ، وكان يحلو له حين يرى العقاد ينحني بقامته الطويلة كي يدخل الباب المنخفض ان يقول لي : « الادارة الجديدة علمتنا التواضع » .

وكان (شوقي) انسانا حساسا ، هائما ، لا يعيش مع الناس من حوله .. وكأنه مشدود دائما الى شياطين محلقة فوق رأسه ، كان اذا اقبل المساء يدخل المجلة ليشارك في ندواتها ، وهناك على الكنبة الوحيدة المريحة يجلس في استرخاء وحوله العقاد والمازني ودياب وآخرون من الكتاب الناشئين يتجادلون في كل مسائل الفن والادب

والسياسة ... اما (شوقي) فلا يشترك في الحديث الا نادرا ... تراه وقد شرد ذهنه وزاغت عيناه كأنه ينظر الى شيء غير منظور ويتمتم محركا شفتيه في همهمة لا تبين ، وانامله تعبث في فم السيجار الانيق الذي يحمله ، ويستمر على هذه الحال فترة تقصر او تطول ، ثم اذا به قد نهض واذا به قد خرج ، دون ان يلقي بالتحية او يقول كلمة واحدة — سائرا في خطواته الوئيدة كأنه يسير وهو نائم ... وهنا نعرف ان الوحي قد هبط عليه وان قصيدة جديدة في طريقها الى الميلاد .

تركت المجلة مقرها في البدروم الارضي الصغير الى مقر آخر في شارع الامير قدادار ، عبارة عن شقة ايجارها تسعة جنيهات ، ولما كانت الشقة واسعة فقد اقتنعت الاستاذ التابعي بأن يتخذ من احدى حجراتها مسكنا له تمشيا مع سياسة التقشف والتوفير — تاركا لاول مرة — حياة طويلة من التنقل بين فنادق القاهرة .

وككل مجلة ناجحة بدأت روز اليوسف تجتذب عددا كبيرا من الشبان الناشئين الذين يحلمون بمستقبل لامع في عالم الصحافة .. ولقد لفت نظري من المترددين شاب طويل ضخم بشكل ملفت ... عيناه صغيرتان لامعتان تتحركان بسرعة عجيبة كأنهما تبحثان دائما عن شيء صالح للالتقاط ... وكان هذا الشاب يدخل المجلة متلفتا هنا وهناك وهو يسرع الخطى الى حجرة الاستاذ التابعي يدفع اليه بعض الاخبار ثم يمضي ... وكان يراني في بعض الاحيان وهو خارج فينكس راسه ولا يحييني .. ولمحت بوادر الاستعداد فسألته وهو خارج في احدى المرات عن اسمه ... فقال : (مصطفى امين) ، ثم عرفت انه تلميذ يهرب من مدرسته ليتصيد الاخبار ويحملها الى المجلة .. وهو منذ اللحظة الاولى يحلم بامتلاك دار صحفية كبيرة ويعمل لذلك . وكان اول باب ثابت حرره (مصطفى امين) بابا عن الطلبة بعنوان (لا يا شيخ) ... وعلي امين هو النصف الثاني لمصطفى الذي لا ينفصل عنه فلم يكد مصطفى يشق طريقه قليلا ويصبح له مكان في المجلة حتى اشرك معه عليا . ومن الشبان الذين عرفوا طريقهم الى المجلة في ذلك الوقت (الاستاذ جلال الدين الحمامصي) وكان بدوره صديقا لمصطفى وطالبا في الجامعة .. وكان يحرر باب الرياضة واشتهر في المجلة بتأنقه البالغ في ثيابه ومظهره وعبوسه المستمر .

وظهر في افق المجلة في الوقت نفسه شابان صديقان ، احدهما بدين مرح والثاني نحيل جاد ، هما : (كامل الشناوي) و (يوسف حلمي) . وقد اشتهر عن كامل انه اكول من الدرجة الاولى وهو ذكي ولكنه كان معروفا بالكسل ، وكان مدللا في اسرته ، لا تدفعه الى العمل حاجة .

وكان هناك ايضا طالب الطب الذي يكتب المواويل .. هو (الدكتور سعيد عبده) .

وكانت مجلة (الكشكول) التي تناصبنا العداء في ذلك الوقت تتميز علينا بشيء واحد هو الرسم الكاريكاتوري الذي كان يرسمه لها الرسام الكبير (سانتيز) ... وتذكرت الرجل الارمني الاصلع القصير الذي كان يصعد خمسة وتسعين درجة ليصل الى مقر المجلة القديم وقد حمل بيده نكتة قام برسمها وكنا ننظر الى النكتة فنجدها قديمة او لا تعجبنا فيعود هابطا السلم الطويل بنكتته تهتز في يده . وارسلت في استدعاء (صاروخان) ليرسم لنا واصبح من اكبر رسامي الكاريكاتور في مصر .

هؤلاء الشباب جميعا تخرجوا في (روز اليوسف) التي ساعدتهم على ابراز مواهبهم وقد اصبحوا جميعا جيل الرواد .

نويت ان اصدر جريدة يومية كبرى . ورشح لي بعض الاصدقاء (الدكتور محمود عزمي) ليكون رئيس تحريرها .. وفكرت ان اضم الاستاذ العقاد الى اسرة الجريدة ، وذهب اليه رسول يجس نبضه .. وسأل العقاد : (الجرنال حيكون اسمه ايه ؟)

— روز اليوسف اليومية .

— لا ... انا لا اعمل في جرنال يحمل اسم واحدة ست !

ولكن الرسول لم ييأس فمضى يفاوضه وعدل الاستاذ العقاد عن موقفه نظير بعض الشروط المالية ... وخرج (محمود عزمي) (والعقاد) من (جريدة الجهاد) وخرج بعدهما توفيق صليب ليكون سكرتيرا لتحرير روز اليوسف .

وفي الساعة السادسة صباحا بعد ان اطمأن قلبي الى ان العدد الاول من الجريدة اليومية قد ظهر كما احب وينادي عليه الباعة ويتخاطفها القراء دق جرس التليفون ، ورفعت السماعة ، وقبل ان اضعها على اذني كان قد ارتفع فيها صوت الاستاذ العقاد الاجش يهدد في لهجة غاضبة ...

— خير يا استاذ عقاد !

واخذ يروي لي في غضب شديد احتجاجه على كلمة في برواز صغير تحت مقاله في الصفحة الاولى جاء فيها : (ابدأ بقراءة الصفحة الثانية) وهي الصفحة التي تحتوي على الاخبار السياسية الهامة وعلى كلمتي ، وعلى مقال الدكتور محمود عزمي رئيس التحرير .

وانفجر العقاد :

— يعني ايه ابدا بقراءة الصفحة الثانية ؟ معناه ايه الكلام ده ... يعني عزمي عايز يقول ايه ... ؟ عايزين تقولوا ان الصفحة الاولى مش مهمة .. عايزين تقولوا ان مقال (عزمي) اهم من مقال (العقاد) ؟ !

ولما كنت اعرف ان اقناع العقاد بعكس رأيه امر بالغ الصعوبة .. اما محاولة اقناعه وهو في سورة الغضب فتلك من ابعد المستحيلات ... قلت له : انني لم اقرا هذه

انفجار

لا تحمليني على تمزيق أقنعتي	سيلي اذا فاض لا يبقي ولا يذر
ولا يغرنك ما بالسطح من زبد	ان الحقائق في الاعماق تستعر
ولا يريبك في حق تربصه	رجاحة الحق تبدو حين ينتصر
ولتتركيني.. فلا أقسى على وتري	من ان ارى الناس بالانسان تتجر

حلب ـ ص.ب ٥٦١٧ — انور عدي

الكلمة . وسوف احاسب المسؤول حسابا شديدا .

والعقاد على ما ترى من ضخامته وجهامته وعنف غضبه انسان طيب القلب ، ليس هناك اسهل من كسبه ، وانه ليكفي ان توافقه على رأيه لكي يهدأ ويسكن ويصبح الموج الهادر بحيرة هادئة .

والتقيت بالعقاد بعد ذلك في الجريدة ظهرا فشرحت له الاسباب ولكنه لم يقتنع . وكان من عادة العقاد ان يكتب مقاله اليومي في البيت ويتركه في الجريدة صباحا ، ويترك للاستاذ (كامل الشناوي) مهمة مراجعته ثم يعود ليلا ليلقي عليه بنفسه نظرة اخيرة .

وذات يوم كتب العقاد مقالا عنيفا ضد نجيب الهلالي وزير المعارف واعطاه لتوفيق صليب بوصفه سكرتيرا للتحرير ... وقال انه مسافر الى الاسكندرية وطلب منه الا ينشر المقال الا اذا اتصل به من الاسكندرية .

وفي الليل دق التليفون على مكتب توفيق صليب وسمع صوت العقاد يحدثه من الاسكندرية ويطلب منه ان ينشر المقال غدا .. ويطلب منه ان يضع خطوطا تحت فقرات معينة فيه ... وانتهت المكالمة بعد تعليمات من العقاد ، وبعد دقائق وصل كامل الشناوي ودخل على توفيق صليب ضاحكا ، فقد كان هو الذي قلد صوت العقاد ...

وبعد ساعة او تزيد دق التليفون مرة ثانية ، ورفع توفيق صليب السماعة ليسمع صوت العقاد مرة اخرى يطلب منه الا ينشر المقال ... وظن توفيق صليب ان المتكلم هو كامل الشناوي مرة اخرى فانفجر فيه :

ـ يا اخي ما بلاش دوشه ! انت مش لاقي حاجة تعملها . يا اخي انا مش فاضي للعب ده .

ورد عليه الصوت ردا عنيفا فرد عليه توفيق ردا اشد عنفا واستمر يشتم محدثه فترة طويلة قبل ان يكتشف ان محدثه هذه المرة هو العقاد حقا ... وعاد العقاد من الاسكندرية وهو في اشد حالات الغضب للشتائم التي جرؤ توفيق صليب على توجيهها اليه . وعبثا حاولنا ان نقنعه باللبس الذي وقع فيه توفيق صليب ! ورفض ان يصدق (كامل الشناوي) نفسه حين روى القصة . وظل يقول لي :

ـ لا .. ده توفيق صليب قاصدها ، وهو عايز يهزاني بأي طريقة .

وفي ذات مرة احضر العقاد الرسام (رفقي) ليعطيه فكرة صورة كاريكاتورية ، والمفهوم ان الصورة الكاريكاتورية على الارجح نكتة يجب ان تكون قليلة الكلام.. ولكن العقاد اخذ يشرح له فكرة طويلة تشبه ان تكون مقالا : (المصري افندي) يقول (لجون بول) كذا وكذا وكذا ، وشخصيات كثيرة تتجادل ، وكلام طويل لا يمكن ان يكون نكتة ... وكان العقاد يبذل جهودا جبارة لافهام الرسام هذه (النكتة) ... والرسام يحاول عبثا ان يفهم كيف يرسم هذه الصورة ... ودخل عليهما كامل الشناوي ، فنظر العقاد الى كامل متهللا ، واراد ان يشرح له النكتة بوصفه خبيرا فيها ، وفرغ العقاد من شرح نكتته ليرى (كامل) واقفا ساكنا لا تبدو على وجهه نبرة ضحك او ابتسام او حتى فهم لهذه النكتة ولم يحتمل العقاد هذا الحكم فصاح غاضبا ... انت مش راضي تضحك ليه ؟ عاوز تقول ان نكتتي بايخه ؟ انت عاوز تحتكر النكت ... انا بقالي عشرين سنة بقول نكت . وعبثا حاول كامل ان يهدئه او ان يقنعه بأن نكتته ليست بايخه الى هذا الحد .

* * *

هذا جانب من ذكريات السيدة فاطمة اليوسف .. وقد تناولت في ذكرياتها المسرح ، والادب ، والسياسة ، والصحافة ، ولكني آثرت ان اقتطف واركز على ذكرياتها التي تظهر لنا متاعب العمل الصحفي وبعض الجوانب الخفية في حياة عدد من كتابنا وشعرائنا وهي صفحات مطوية ، انفردت بنشرها السيدة فاطمة اليوسف بحكم احتكاكها بهم في مجلتها الاسبوعية وصحيفتها اليومية .

القاهرة — ايليا حليم حنا

في ربى الارز

*

يـا رفاقي قد هيجت اشجاني ... ذكريات كانـت هنـا وامـان
خطرت في دروب انفـا وشكا ... وتهادت علـى ربـى لبنـان
بـين لـوز يغيب في تفـاح ... وزهـور تفيض بالالـوان
وكـروم تمتـد خلـف كـروم ... وهـزار يشدو علـى سنديان
ثـم غابت سفينتي خلف افق ... اخر في الدنى كما هـو شاني
بـين شـط وآخـر اقطع العمـر ولكـن لا شاطـىء للامـان
ولقـد عدت بعـد عـدة اعـوام فطـاب اللقـاء بالخـلان

والتقينا من غـير سابق ميعاد ... مسـاء في ردهـة البستـان
حولنـا يصدح البيانـو برفق ... ويميـد الهـواء بالالحـان
ووراء الزجـاج في السفـح بـيروت بريـق كلؤلـؤ وجمـان
تتراءى أضواؤها مثـل الماس ودر في جيـد سـود الحسان
سألتني من أنت ؟ من أي أرض ؟ ... أنـا بـين السيوف نصل يمان
كـم وكم قارع الخطوب وكم فل ولكـن مـا زال عضب السنان
كـم سرى يقطـع القفار ويطويهن وثبا مـن كـل قاص ودان
يا ابنة الارز هل ترين بوجهي ... مـا بقلبي مـن شاعر اسوان
هـل ترين اشتعال لمة رأسي ... وشبابي مـا زال في الريعان
هـو في لمتـي انعكـاس لمـا بـين ضلوعي مـن لوعة الفنان
وهـو عنـدي ضريبـة لسمو ... كثلـوج تشع فـوق القنـان
وتساءلت من تكونين ؟ مـن أي مكان مـن بـين هـذي الجنان
مـن برمانة ‥ وورد خدودي ... كشهـي التفـاح والرمـان
وبحصـرون قـد ترعرعـت ... كالظبية بـين الجبال والوديان
وشفاهي ككـرز لبنـان طيبا ... وعبـيري كالفـل والريحـان
وأنـا بعـد ذات علـم وجاه ... ودلال ورقـة وحنـان

مـن هنا أول السفائن شقت ... صفحـات البحـار والخلجان
وأنارت حضارة بعـد أخـرى ... لعيـون الورى دروب الزمان
بابـل أو فينيقيـا أو اشور ... قبـل مجـد الاغريق والرومان
ولقحطان مـن بـلادي بقايـا ... في ثرى الارز من بني غسان
يا رفاقي هل تشعرون بما في ... مهجتي من تحسر ‥ وافتتان
ولد الحرف ها هنا يـا رفاقي ... وتجلـت اشراقـة الانسـان
وتلاقـت في صفـوة واخـاء ... في الروابـي الاديـان بالاديان
ثـم ماذا ؟ ‥ تخلف وخلاف ... وقتــال الاخـوان للاخـوان
وضياع ‥ وهجرة ‥ ودموع ... ودمـــاء تسيـل كالغـدران
فلعـل الفجـر الجديد قريب ... ولعـل الليـل المؤبـد فـان

يا ابنة الارز هكذا اسكب الشعر اذا فـاض بالشعـور كيانـي
فاصيخـي اذا تلـوت قصيدي ... فالقوافي تجـري بغـير عنان
ولتقولـي لربـوة الارز عنـي ... ان قلبـي مدلـه ولسانـي
ان تجنيت فهي بعض جراحي ... او تغنيت فهـي مـن أوطاني

دبي ـ الامارات العربية المتحدة ... شهاب غانم

قصيدتان

نادر ناشد

القاهــــرة

١ ــ الدائــرة

اخطو احيانا في دائرة الخوف
يطاردني عنق زجاجة زمن زيف
اطفو فوق عيون الاصداء المرئية
اتحوصل في دائرة الابدية
... شمسا مغمضة الاطراف ..
صمتا ازليا ... صمتا ازليا
يمنحني صمتي متكأ آخر
ابحر في خط طلاسم نهر النفس البشرية
اخرج منها مرئيا
اتكون في ادرجة المجهول
مرئيا .. مرئيا
« يا ابيات الشعر العذراء
خذيني بين ضفتيك
جندولا من فضة
خذيني بين مخمليك
بين شفتيك .. حروف رجاء
او فالقيني ابحر في دائرة الشعر الثائر
ابحث عن زمن آخر
ابحث عن زمن آخر »

*

٢ــ جــدار

اعبر في كل مساء
جدارا يفصلني بين اللحظات
وبين اللاوقت .
اراجع اوراق الفجر القلقة
واواري ساعات الماضي المقتول
مراثيا اقول ... مراثيا اقول ...
وحين ارتدي جلباب الشعر المجروح
انات .. او كالبرق المشجوج
ادرك ان الصمت الذي
رسم انات الكلمات ..
في غيهب الاصوات
موتا يصير ... موتا يصير
امد صوتي اوتارا في بئر سحب الغيب
او قد انحلها في غمرات انين الوقت
او قد انسجها صمتا ...
... ولكن حين اتدانى للجدران
« للغرف المسكونة بايماءات الآتي
... لغرقى الزمن الآني .. »
اتوانى في اللحظة
اتحوصل طوفانا
« شرنقة المجهول اصير
شرنقة المجهول اصير »

*

عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين

بقلم فوزي عطوي

* * *

رغم كل ما كتب عن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز الذي اطلق عليه لقب « خامس الخلفاء الراشدين » ، ولقب « ضمير الامة الاسلامية » ولقب « الخليفة الزاهد » ، فيبدو ان في سيرته السيراء ، واخلاقه الزهراء ، ما يغري الاقلام العربية ، فترة تلـو الفترة ، باستعادة سيرته ، واستشفاف تلك الرؤى اللطيفة المتناهية من خلال سلوكه الاسلامي الاخلاقي الرفيع الذي استطاع به ان « يملأ الارض عدلا وسلاما ، بعد ان طفحت ارجاؤها بالظلم والجور والفساد ، وجرت في اوديتها دماء الضحايا والثوار والشهداء » على حد تعبير دار الهلال التي نشرت كتاب الدكتور محمد عمارة : عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين .

ومن عجب ان هذا الخليفة الاموي قد ثار به بنو أمية وتآمروا عليه ، فيما ثار لاجله وأجزل له النصرة والتأييد جميع خصومهم من معتزلة ، وشيعة ، بل وخوارج ، لما تلمسوا في ظل خلافته ما تلمسوه من آيات العدالة والعودة بالناس الى الصراط المستقيم .

ويؤكد ناشر هـذا الكتاب الـذي وضعه الباحث الاسلامي الجاد الاستاذ الدكتور محمد عمارة الذي قاربت مصنفاته الاربعين كتابا ، فغدا مدرسة فكرية متميزة تحول فيها التراث الى طاقة مبدعة وخلاقة ، يؤكد ان المؤرخين ، حين قالوا عن عمر بن عبد العزيز انـه خامس الخلفاء الراشدين لم يقصدوا تأخير مرتبته عن الاربعة الاولين ، فلربما تقدم بعضهم عند الكثيرين . فمن يعيد العدل بعد غروب شمسه ، ويصرع الظلم بعد طغيانه ، هو ولا شك مقدم على الذي عدل عندما وجـد طريق العدل ممهدا ومفتوحا ! »

نشأة عمر بن عبد العزيز

يتحدث الدكتور محمد عمارة « في هذا الكتاب ، ومن خلال تمهيد تفصيلي ، عن حياة عمر بن عبد العزيز ، ابي حفص المولود عام ٦٢ للهجرة الموافق لعام ٦٨١ للميلاد ، والمتوفي عام ١٠١ للهجرة الموافق لعام ٧٢٠ للميلاد فيشير الى انه حمل الى اصوله الاموية نسبا جديدا وخلقا جديدا ، فأمه هي : أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب !

ولعل ههنا مفتاح السر ، في شخصية هذا الخليفة الاموي الزاهد ، الذي سار في طريق مخالف لطريق معظم الخلفاء الامويين ، وأعاد سيرة جده لأمه الخليفة العظيم العادل عمر بن الخطاب .

ويوضح المؤلف ان عمر بن عبد العزيز لم ينشأ كغيره من فتيان بني امية وامرائها ، في الشام ، حيث عصبية الدولة الاموية وولاؤها الطاغي وسلطانها الذي لا ينازع ، وانما ولد ونشأ في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيـث حركات المعارضة ، وتيارات السخط ، الظاهرة او الخفية ، لحكم بني امية ، وما احدثوا في الحياة الاسلامية من مظالم وتغييرات ، وحيث يستطيع المرء ، اذا ما صفت رؤيته وخلصت نياته ، ان يبصر الجانب الآخر من صورة الدولة والمجتمع : الصورة المقابلة والمناقضة لما تتزين به صورة الدولة وعاصمتها وحاشيتها من ترف وثراء وعطاء وانعامات .

كان معلم العلماء

ويذكر المؤلف ما اورده ابن سعد في طبقاته ، حيث وصف ميمون بن مهران عمر بن عبد العزيز بأنه « كان معلم العلماء » ، وذلك لان الفتى ، وان نشأ في المدينة المنورة اميرا من امراء الدولة ، يستمتع بما توفره الامارة لمثله من رفاهية وميزات ، الا ان المناخ العلمي لمدينة الرسول قد أتاح له ان يسلك درب العلم ، وان يرتقي مدارجه ، حتى لقد اصبح ، وهو شاب طري العود بعد ، احد علماء الاجتهاد الاسلامي .

عمر : امير المدينة

ويتولى عمر بن عبد العزيز ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، امارة المدينة المنورة ، في عهد الوليد بن عبد الملك ، فتبدأ فيها اولى تجاربه السياسية ، ويدرك ادراكا عمليا مدى ما تراكم على الحياة الاسلامية مـن المظالم والتجاوزات والانحرافات ، كما يدرك ا نالتحول الاساسي الذي احدثته الدولة الاموية ، منذ عهد معاوية بن ابي سفيان ، فانقلبت به على نظام الحكم الاسلامي الراشدي ، قد تمثل في الانقلاب على فلسفة الحكم : « فبدلا من الشورى والاختيار ، اصبح ملكا وراثيا عضودا ، الامر الذي حرم الامة من فرص الحرية في التغيير ، ومن ثم حرمها امكانية الاصلاح في ميادين الثروة والاقتصاد ، فكانت المظالم التي اصبح الناس يئنون تحت نيرها ، وتنفجر ضد بشاعتها ، بين الحين والحين ، التمردات والانتفاضات والثورات » .

فما كان من عمر بن عبد العزيز ، والحال هذه ، الا ان دعا عشرة من فقهاء المدينة وقادة الفكر فيها وهم : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عتبة ، وابو بكر بن عبد

الرحمن ، وابو بكر بن سليمان بن ابي حشمة ، وسليمان ابن يسار ، والقاسم بن محمد بن ابي الصديق ، وسالم ابن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وكون من هؤلاء العشرة الفقهاء مجلس شورى ، وحدد مهام المجلس ، اذ جعلها : « معاونة الوالي على الحق ، والتنبيه على المظالم والتعديات ، والحيلولة دون الوالي ودون الانفراد بالقرار » . وقال للعشرة الفقهاء قولا ذكره الطبري في تاريخه : « ما اريد ان اقطع امرا الا برايكم » .

وهكذا ، عمد عمر بن عبد العزيز ، وبخطوة بسيطة لا تعقيد فيها ، الى مثل انقلاب في مسلك الحكم واخلاقيته ، اذ اعاد العمل بالآية الكريمة : « وامرهم شورى بينهم » ، و « شاورهم في الامور » ، فعادت المدينة في عهده ، كما كانت في عهد الرسول الامين ، عليه الصلاة والسلام ، حرما آمنا للمسلمين ، وغدت ملجأ للمضطهدين والرافضين لعسف الحجاج بن يوسف ، والي العراق ، فوجدوا في المدينة مناخا ملائما لفكرهم الثائر ضد الجور المتمثل في الحجاج ، كما وجدوا عند اميرها « العقل الذي يتفهم ، والقلب الذي يتألم ، والفكر الذي يتعاطف مع احلامهم في الحرية والعدل بين الناس » .

.. ويعزل عن الامارة

ويكتب عمر بن عبد العزيز الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يشكو اليه ما يصنعه الحجاج بأهل العراق ، فيكرهه الحجاج أيما كره ، ويؤلب الخليفة عليه ، ويحذره من مغبة اجتماع الثوار في المدينة ، تحت جناح عمر بن عبد العزيز ، ويقول له :

« ان من قبلي من مراق اهل العراق واهل الشقاق قد جلوا عن العراق ، ولجأوا الى المدينة ومكة ، ان ذلك وهن وضعف من الدولة ، تخشى عواقبه » .

وانساق الخليفة ، مستجيبا لرغبة الحجاج ، وساله من يرشح لولاية المدينة ومكة ، فرشح الحجاج عثمان بن حيان للمدينة ، وخاله بن عبدالله لمكة ، ومن ثم عزل عمر بن عبد العزيز ، فغادر المدينة منفيا الى قرية السويداء في جبل حوران ، على مقربة من دمشق .

ولكن الفتى الصالح ، والامير الطامح الى عدل الاسلام ــ على حد قول المؤلف ــ لم يوقفه العزل ، ولا النفي عن توجيه النقد للظلم البادي والمظالم التي يئن منها الناس ، فأخذ يشكو الى ربه ، ولاة الظلم والجور الذين اجتمعوا على حكم المسلمين في مختلف الامصار والاقاليم : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بمصر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! .. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا ، فأرح الناس » (الكامل في التاريخ لابن الاثير) .

ثم يتوفى الوليد ، فيخلفه سليمان بن عبد الملك الذي اعاد عمر بن عبد العزيز الى ما شبه منصب الوزارة ، لكن عمر بن عبد العزيز لا يهادن ، ولا يخاف في الحق لومة لائم . ويذكر المؤلف عن تلك المرحلة ما كان بين عمر واسامة ابن زيد ، والي مصر ، الذي برر المظالم التي ترتكب بأنها تنفيذ لسياسة الخليفة ، فقال له عمر بن عبد العزيز :

« ان الخليفة لن يغني عنك من الله شيئا » . (الوزراء والكتاب ، للجهشياري) . ويعلق المؤلف على هذه الحادثة بأن التقوى اصبحت لدى الرجل ضميرا مرهفا وحساسا ، يستشعر الالم الحاد والعنيف لادنى انحراف يصيب الفرد او الدولة او الامة عن صراط الاسلام المستقيم وعدله الذي تمثل في حكم الرسول عليه الصلاة والسلام ، ودولة الخلفاء الراشدين .. حتى لقد اصبح ، وسط امراء بني امية ، الضمير الذي ينغص عليهم الاستمتاع بالملذات والشهوات ، والنفير الذي يزعجهم كي يستيقظوا من الغفلة التي فيها يعيشون . وعندما سأله الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، في لحظة افتخار وزهو بما هو فيه من ملك عظيم ونعيم مقيم فقال : « يا عمر كيف ترى ما نحن فيه ؟ » ، اجابه عمر : « سرور ، لولا انه غرور ! وحياة ، لولا انه موت ! وملك ، لولا انه هلك ! وحسن ، لولا انه حزن ! ونعيم ، لولا انه عذاب اليم » . (مروج الذهب ، للمسعودي) .

النضال لتحرير الانسان

لقد مارس عمر بن عبد العزيز النضال ، بأسمى معانيه ، من اجل تحرير الانسان من الظلم والجور ، أيا كان مصدرهما ، ومن اجل نزع الثروات من ايدي المغتصبين ، ايا كانوا ، وردها الى بيت مال الامة . لقد حمل الرجل هموم البشر ، وتعدى ذلك النطاق الى الرحمة والرأفة بالحيوان : يروي ابو يوسف في كتاب « الخراج » ان عمر بن عبد العزيز نهى عمال البريد عن ان يضعوا في طرف السوط الذي ينخسون به الدابة ، حديدا ، ومنع اصحاب الدواب من الجامها باللجم الثقال .

لا بل لقد بلغت به نزاهته ، وشدته في الحق ، وجبروته في العدل حدا جعله يهدد امراء اسرته من بني امية بالذبح ، ان هم حالوا بينه وبين اعادة ثرواتهم التي اغتصبوها من الامة ، الى الفقراء المستحقين . يقول ابن سعد ، في طبقاته ، على لسان عمر : « ان لله في بني مروان ذبحا ، وايم الله ، لئن كان ذلك الذبح على يدي » .

تدين .. بلا مراءاة

وكان من اخلاق عمر بن عبد العزيز ابتعاده عن مظاهر المراءاة في الدين ، فلم تكن تقواه ، كما يقول الدكتور محمد عمارة ، صلاة اكثر ، ولا صياما اطول ، ولا مسبحة مدلاة .

ويروي ابو يوسف في كتاب الخراج : ان الفقهاء سألوا زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، عندما جاؤوا يعزونها بوفاته عن اسرار تقواه وقالوا لها : « اخبرينا عنه ، فان اعلم الناس بالرجل اهله » . فقالت لهم فاطمة : « والله ما كان بأكثركم صلاة ، ولا صياما . ولكن والله ، ما رايت عبدا اشد خوفا لله من عمر ، كان همه بالناس اشد من امر همه بنسفه . قد فرغ بدنه ونفسه للناس ، يقعد لحوائجهم يومه ، فاذا امسى وعليه بقية من حوائجهم ، وصله بليلته . ووالله ، ان كان عمر ليكون في المكان الذي ينتهي اليه سرور الرجل مع اهله ، فيذكر الشيء من امر الله ، فيضطرب كما يضطرب العصفور قد وقع في الماء ، ثم يرتفع بكاؤه حتى اطرح اللحاف عني وعنه رحمة له .. ووالله لوددت لو كان بيننا وبين هذه الامارة بعد ما بين المشرقين » .

وعندما كانت زوجته فاطمة تسأله عن سبب ما هو فيه ، كان يجيبها : « لقد توليت امر هذه الامة ، اسودها واحمرها ، فذكــرت الغريب القانـــع الضائع ، والفقير المحتاج ، والاسير المقهور ، واشباههم في اطراف الارض ، فخفت على نفسي حساب الله عن هؤلاء الناس » .

انعقاد البيعة لعمر

اما وهذا امر عمر بن عبد العزيز ، فقد كان من المستبعد جدا ان يتولى منصب الخلافة ، لكن مشورة صالحة من عالم صالح هو رجاء بن حيوة ، اقنعت الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي كان على خصومة مع الوليد (وبالتالي فقد قرب اليه كما راينا عمر بن عبد العزيز ومن كان مثله مبعدا في خلافة الوليد) ، اقنعته بأن يعهد بالخلافة من بعده لعمر ابن عبد العزيز ، الرجل التقي الصالح ، والخبير بشؤون الامارة والوزارة .

وقد تنبه سليمان الى ما يمكن ان يحوكه الامويون من المؤامرات حول عمر بن عبد العزيز ، ان هو ولاه دون ان يولي واحدا منهم ، وقال في نفسه : « والله ان وليت عمر ، ولم أول احدا سواه ، لتكونن فتنة ، ولا يتركونه ابدا يلي عليهم الا ان يجعل احدهم بعده ، فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده ، فان ذلك ممـــا يسكنهم ويرضون به » (تاريخ الطبري) .

وفي الحادي والعشرين من صفر عام ٩٩ للهجرة الموافق للثالث من تشرين الاول (اكتوبر) عام ٧١٧ للميلاد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة فوجد نفسه ازاء فئتين : فئة انسبائه الامويين الذين اعمتهم المطامع ، وفئة المؤمنين المغلوبين على امرهم . فعمد فور الفراغ من دفن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك الى اجراء تغييرات جذرية في جهاز الدولة ، ورفض ان يعود الى قصر الخلافة بالموكب الرسمي المعتاد ، كما رفض ان يجلس على الفرش التي كانت تبسط في مجلس الخليفة ، ثم غادر الى المسجد ، وصعد المنبر ، واسمع الناس كلاما لم يسمعوا مثله ، منذ ان انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، فقال :

« اما بعد ، فانه ليس بعد نبيكم نبي ، ولا بعد الكتاب الذي انزل عليه كتاب . الا انه ما احل الله حلال الى يوم القيامة ، وما حرم الله حرام الى يوم القيامة ، الا اني لست بقاض ولكني منفذ ، الا اني لست بمبتدع ولكني متبع ، الا انه ليس لاحد ان يطاع في معصية الله ، الا اني لست بخيركم ، ولكني رجل منكم ، غير ان الله جعلني اثقلكم حملا . الا ان الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بعاص ، ولكن الامام الظالم هو العاصي » . (طبقات ابن سعد ، مروج الذهب للمسعودي) .

ويبصر الخليفة الجديد تلك البدعة التي شاعت قبل توليه امور المؤمنين ، اذ كان يفصل في المسجد بين الصفوف الاماميـــة المخصصة لاركان الدولـــة والامراء والصفوف الورائية المخصصة لعامة الناس بفراغ بينهما ، فأشار الى العامة ان تقدموا ، فزحفوا حتى امتلأ بهم الفراغ ، واختلطت مجالس الناس (طبقات ابن سعد) .

الشدة مع الولاة

ويروي الطبري في تاريخه ان يزيد بن المهلب والي خراسان كان قد فاخر في بعض مراسلاته الى الخليفة سليمان بن عبد الملك انه غنم من الفتوحات ما يقدر بستة ملايين دينار (وهذه ذمة للدولة ، وليست حقا للوالي) ، ثم عاد فأنكر اقراره ، بعد موت سليمان ، وزعم ان الامر لم يخرج عن حديث المفاخرة بين وال وخليفته ، اذ كانا صديقين ، فأرسل عمر بن عبد العزيز اليه كتابا يقول فيه :

« اما بعد ، فان سليمان كان عبدا من عبيد الله ، انعم الله عليه ، ثم قبضه واستخلفني .. وان الذي ولاني الله من ذلك ، وقدر لي ، ليس علي بهين . ولو كانت رغبتي في اتخاذ ازواج ، واعتقاد اموال (اي جمعها) ، كان الذي اعطاني من ذلك ما قد بلغ بي افضل بأحد من خلقه . وأنا اخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ، ومسألة غليظة ، الا ما عافى الله ورحم » .

فلما قرا يزيد كتاب الخليفة الجديد ، ايقن اي انقلاب حدث في قمة السلطة ، كما ادرك ان لا سبيل الى وفاق او اتفاق بينه وبين الخليفة الجديد ، فوجد ان من الحكمة ان يتقدم باستقالته ، قبل ان يقيله الخليفة ، والتفت الى اصحابه ، قائلا : « لست من عمال عمر بن عبد العزيز » .

وسألوه : ــ ولم ؟

فقال : ــ ليس هذا كلام من مضى من اهل بيته ، وليس يريد ان يسلك مسلكهم .

ويروي الطبري ايضا ان عمر بن عبد العزيز اصدر على الفور قرارا بعزله ، فلما امتنع عن اداء ما في ذمته من اموال الى بيت المال ، سجنه الخليفة رغم ما له من عصبية ، وقال له : « ما اجد في امرك الا حبسك ، فاتق الله واد ما قبلك ، فانها حقوق المسلمين ، ولا يسعني تركها » . وتحدث عمر ايضا الى اهل شوراه عن يزيد هذا وعصبته ، فقال : « هؤلاء جبابرة ، وانا لا احب مثلهم » .

وكانت تلك اولى خطواته نحو ما قرر القيام به من ثورة وتبديل في البنية الادارية والاجتماعية والاقتصادية للدولة والمجتمع .

مرحلة السلام العام

ويعرض الدكتور محمد عمارة ، بعد ذلك ، لما يسميه مرحلة « السلام العام » التي بدأها عمر بن عبد العزيز ، عن طريق الغاء مبدأ « التجريم » بسبب الخلاف في الراي والاهداف ، فيوضح كيف ان هذا الخليفة الاموي الزاهد حظي بالقبول والرضى والنصرة من جانب الفئات المختلفة والمتصارعة فيما بينها ، في معظم الاحوال ، اذ احبـه الهاشميون ، وتعلق به آل البيت ، ومدحه شعراء الشيعة وانشأوا فيه المراثي عندما مات . واقترب منـه ثوار الخوارج ووثقوا به وهادنوه . ولقد تولى الخلافة بالميراث ، وليس بالشورى والاختيار العام ، ومع هذا فان المعتزلة التي كانت تشكل اهم التيارات الثورية المعارضة للدولة الاموية اعترفت به اماما ، وعاونته ، وانخرط اصحابها في جهاز دولته ، بل عدوه واحدا من رجالات فرقتهم ، وذكروه ضمن الطبقة العاشرة من طبقات اعلامهم (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضي عبد الجبار بن احمد) . واخيرا اتخذه الفقهاء من اهل السنة واحدا من ائمتهم ، واحله المتصوفة مكانا عليا بين اسلافهم الذين سبقوا الى الطريق !

ولعل هذا الاجماع الذي يجد تفسيره فيما قاله احد ائمة المعتزلة ابو علي الجبائي : « ان عمر بن عبد العزيز كان اماما ، لا بالتفويض المتقدم ، ولكن بالرضا المتجدد من اهل الفضل » ، وفيما قاله ايضا عمرو بن عبير ، وكان ايضا من ائمة المعتزلة : « ان عمر بن عبد العزيز قد اخذ الخلافة بغير حقها ، ولا باستحقاق لها ! ثم استحقها بالعدل حين اخذها » (مروج الذهب للمسعودي) .

واذا كان هذا شأن المعتزلة ، فان للخوارج شأنا آخر ، اذ يروي المؤلف كيف حاورهم الخليفة ، بعد ان ثاروا في مطلع خلافته ، في اقليم الجزيرة ، شمالي العراق ، بقيادة شوذب (بسطام) من بني يشكر ، فتولدت لديهم الثقة بأن اهدافهم واهداف الخليفة واحدة ، وكذلك السبل الى تحقيق تلـك الاهداف ، وصارت الخلافات الاخرى بسيطة وشكلية حتى انهم لم يروا « السلام العام » بعيدا عنهم او مستبعدا بعد ان قرر الخليفة اصدار قرار « السلام العام » خلال ثلاثة ايام ، ولم يكونوا ينقمون على الخليفة الا انه لا يلعن من كان قبله من اهل بيته ، وهذه مداهنة منه (طبقات ابن سعد) .

ويذكر الطبري في تاريخه ان الخوارج فوجئوا بجيش الدولة يهاجم معسكرهم قبل انقضاء الهدنة التي قررها الخليفة ، فسألوا الوالي محمد بن جرير : « ما اعجلك قبل انقضاء المدة فيما بيننا وبينكم ؟ » فأجابهم : « انه لا يسعنا تركح على هذه الحالة » . فعجبوا ، ثم اتضح السبب ، فبطل العجب ــ على حد قول المؤلف ــ ذلك ان امراء بني امية قد جزعوا عندما علموا ان عمر بن عبد العزيز قد قرر اعادة النظر في امر من سيلي الخلافة من بعده ، اي قرر العدول عن نظام التوارث في الخلافة ، وجعل للراي والمشورة مكانا في هذا المقام ، فبيتوا امرهم ، ودسوا له السم في الشراب ، فمات قبل انقضاء الايام الثلاثة التي تواعد مع الخوارج بعدها على اصدار القرار . وقد ادرك الخوارج بدقة واستنتاجا ان الهجوم المباغت الذي شن عليهم ، ما كان له ان يحدث لو ان عمر بن عبد العزيز لا يزال حيا ، فقالوا : « ما فعل هؤلاء هذا ، الا وقد مات الرجل الصالح » .

بقي الهاشميون ، وهم ايضا يشكلون تيارا معارضا للدولة الاموية منذ ان شق معاوية عصا الطاعة على امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، لكن عمر بن عبد العزيز ، ادخلهم في اطار السلام العام ، واتخذ عـدة اجراءات لمصلحتهم : كان بنو امية قد حرموا الهاشميين عطاءهم ، فعانى الكثيرون منهم الفقر والمسغبة ، فرد عليهم عمر بن عبد العزيز ما يستحقون ، وطلب الى عامله على المدينة ان يقسم في اولاد علي بن ابي طالب ، من فاطمة ، عشرة آلاف دينار ، وقال : « انهـم طالما تخطتهم حقوقهم » (مروج الذهب للمسعودي) . ولما اجتمع الهاشميون ، ليكتبوا اليه شاكرين عدله ، اجابهم بقوله : « قد كان رايي قبل اليوم ، هذا . ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان ، فأبيا علي . فلما وليت هذا الامر ، تحريت به الذي اظنه اوفق ، ان شاء الله » . (طبقات ابن سعد) .

اضف الى ذلك ابطاله لتلك السنة السيئة التي كان خلفاء بني امية قد استنوها بلعن الامام علي بن ابي طالب فوق منابر المساجد ، فأبدل اللعن بذكر الآية الكريمة : « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

الاصلاحات الجذرية

وعلى ضوء هذا الاستقطاب لمختلف التيارات ، في عصره ، استطاع عمر بن عبد العزيز ان يجري اصلاحاته الجذرية التي يشير الدكتور محمد عمارة الى ان مضمونها كمـا

اوجزه القدماء ، يتلخص في كلمتين هما : « رد المظالم » . يقول :

« و « رد المظالم » او « الثورة الاجتماعية » قد تمثلت بانجاز عمر بن عبد العزيز هذا في عملين ، هما في الواقع عمل واحد متكامل : فهو قد انتزع الارض والمال والثروة ، وكل المقتنيات التي كانت في صدر الاسلام ملكا لبيت مال المسلمين ، اي للامـة ، وكانت تمثل الثروة الاساسية للمجتمع والامة ، انتزعها مـن حيازة الذين حازوها واجتازوا وملكوها ، وردها مرة اخرى الى بيت مال المسلمين ، كي تعود مرة اخرى ملكا للامة جمعاء .. وخلال هذه العملية الثورية الكبرى ، عالج المظالم الفردية ، فاخضعها لنفس القانون » .

الزهد والقناعة بالكفاف

ويذكر لنا المؤلف ، نقلا عن المؤرخين ، ما كان عليه عمر بن عبد العزيز ، وهو احد امراء البيت الاموي ، من اهتمام بملبسه ، وعطوره ، وما كان يعيش فيه من نعمة ورفاهية ، وما كان له من اموال واقطاعات وجواهر للزينة والاقتناء . فلما ان ولي الخلافة ، واعلن ثورته لرد المظالم ، بدأ بنفسه وقال : « انه لينبغي ان ابدأ بأول من نفسي » فتنازل عن كل املاكه ، وعن عبيده وجواريه ، حتى ليروى ان ثمن حلته اصبح ــ وهو خليفة ــ عشرة دراهم ، بعد ان كانت بألف دينار ، وقنع بالكفاف ، وتشدد مع نفسه في كل شيء ، حتى اذا سأله بعضهم : « يا امير المؤمنين ، ان الله يقول في كتابه : « كلوا من طيبات مـــا رزقناكم » ، اجاب : « هيهات ! ذهبت به الى غير مذهبه ، انما يريد طيب الكسب ، ولا يريد به طيب المأكل » (طبقات ابن سعد) .

تعميم الثورة الاصلاحية

وعمم الخليفة العادل ثورته علـى الاقاليم والامصار ، واستطاع بذلك ان يداوي ما الم بالامة من جراحات ، طوال العهد الاموي ، وان يعيد الى الناس ثقتهم بأنفسهم وبخليفتهم .

وهكذا ، فبعد ان كانت المظالم ترهق الناس في عهد بني امية ، وجهاز الدولة يستأثر بالجبايات والضرائب والمكوس والصدقات ، اصبحت الدولة ، في ظل خلافة عمر بن عبد العزيز ، مصدرا للعطاء ، وللعطاء المنظم ، لا عطاء الهبات والمنح والاقطاعات ، كما كان يفعل الذين سبقوه للانصار والشعراء والمرائين .

ويؤكد المؤلف ان نظرة جهاز الدولة ــ وعلى راسه الخليفة ــ الـى حقوق الناس في المال ، كانت محكمة بالفلسفة التي قررها عمر ، والتي استرشد فيها بروح الاسلام ، فلسفة المساواة بـين الناس ، في حـدود الاحتياجات والضرورات والامكانيات ، لا فرق في ذلك بين عربي ومولى ، مسلم او غير مسلم ، حاكم او محكوم .

فهذا عمر بن عبد العزيز يخطب في بلدة « خناصره » القريبة من حلب ، في محاذاة قنسرين من ناحية البادية ، فيقول : « ايها الناس .. وما يبلغنا احد منكم حاجته ، يسعها ما عندنا ، الا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه . ولا احد يتسع له ما عندنا الا وددت انه بدىء بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم . وأيم الله ، لو اردت غير هذا من عيش او غضارة ، لكان اللسان به ناطقا ، ذلولا ، عالما بأسبابه . ولكنه من الله ، عز وجل ، كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيهما على طاعته ، ونهى فيهما عن معصيته » . (الاغاني ، لابي الفرج الاصفهاني) .

موت عمر بن عبد العزيز

لقد مثل عمر بن عبد العزيز ما يشبه الاسطورة ، بالنسبة للناس الذين وجدوا فيه الرجل العادل ، بل الشهاب المنير في ليل الدولة الاموية . لكن امراء بيته عاجلوه ، فوضعوا له السم في الشراب قبل ان يعيد الخلافة الى « الشورى والاختيار » ــ على حد قول الدكتور عمارة ــ وقبل ان يضعها ــ حيث كانت ــ بيد « اهل الحل والعقد » وقادة الراي ، يولونها للاصلح والاقدر والاعدل ، ممن تتوافر فيهم الشروط (تاريخ الطبري) .

ويروي الطبري في تاريخه ايضا ان عمر بن عبـــد العزيز ، بعـــد مرض دام عشرين يوما ، صعدت روحه المطمئنة الى خالقها ، وهو في قرية « دير سمعان » ، من اعمال حمص بأرض المعرة ، في يوم السبت ٢٥ رجب سنة ١٠١ للهجرة الموافق للعاشر من شباط (فبراير) سنة ٧٢٠ للميلاد ، قبل ان يبلغ الاربعين من عمره ، وبعد حكم لم يزد عن سنتين وخمسة اشهر واربعة عشر يوما .

كما يروي ابن سعد في طبقاته ان عمر بن عبد العزيز دفن في قبر كان قد اشترى موضعه بدينارين من الراهب الذي يرعى دير سمعان .

ولم ينتظر امراء البيت الاموي لاعلان الثورة المضادة على ثورة عمر بن عبد العزيز . يؤكد ابن خلدون في كتابه « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » انه بمثل السرعة والعزم اللذين قامت بهما ثورة عمر بن عبد العزيز ، فور وفاة الخليفة الذي سبقه ، سليمان بن عبد الملك ، حدثت الردة عن ثورة عمر وعدله فور تولي يزيد بن عبد الملك للحكم ، عندما مات عمر بن عبد العزيز .

.. وبكاه الشعر

وكان جزع الناس شديدا لموت عمر بن عبد العزيز ، وفي

وازوجاه

تغيب عــن العيون ولا تغيب ... عــن المهج التــي كادت تذوب
فطيفـك ماثــل أبـدا لعينــي ... ويكفــي أن مثــواك القلــوب
وأنت علــى الدوام أعــز ركن ... نلــوذ بــه اذا امتدت خطوب
رعيــت شؤوننا في كــل أمــر ... فهــان أمامنا الظرف العصيب
رثاؤك من صميم الروح يسري ... وليس بشعر غيري مـــا ينوب
وهل غاض الشعور لكي أناجي ... حبيبا .. ما حييت .. هو الحبيب
وهل شعري يقصر عــن خليل ... لــه في كــل جارحــة دبيــب
معاذ الله ! انــي لست ألهــو ... وشعري في الملمات .. الوجيب
ولكــن الالـــه أراد أمـــرا ... ولسنا في القضاء لنـــا هروب
وفي شعري بحمــد الله منأى ... عن السرقات .. ان قصمت كروب
وبعدك يـــا حبيبي كــم أعاني ... مــن الدنيا ومن نكــد الزمان
أنوح وأشتكي في حــين أنــي ... قبيــل نواك .. قربان الاغاني
فما أنـــا غيــر عود ذي رنين ... بأوتـــار مفضضـــة المثانــي
وهاتذي الوحيــدة في مكانــي ... أعاني السهد من غصص الهوان
ولــم أجنح لشعر الغير قصدا ... وما ضاق القريض عن المعاني
ولكني حسبت ــ لسوء حظ ــ ... أنين الناس .. في البلوى .. بياني
لأنــي بعــد عــام في شــرود ... ونظــم هاطــل في كــل آن
تشابك في الاسى قولي ونقلي ... فلم أدرك وحقك مـــا اعتراني
فعــذرا للاديب .. اذا لحاني ... ولو يدري مصابي .. ما لحاني
ويكفــي دمعتي تسري بشجوي ... وللنقـــاد .. شكري وامتنانـــي

مصر الجديدة ... نعمت عامر

مثل الظروف المؤلمة التي عرفنا ، فكانوا يودون لو يعطونه نصف اعمارهم ، كما يقول الشاعر الشيعي كثير عزة ، حتى يخلد حكمه ، فيدوم عدله ، وذلك في قصيدته التي منها :

فلو يستطيع المسلمون ، تقسموا ... لك الشطر من اعمارهم ، غير ندم
فعشت بــه مـــا حج لله راكب ... مغـــذ ، مطيف بالمقام ، وزمزم
فاربح بهـــا مـــن صفقة لمبايع ... واعظم بها ، أعظم بها ، ثم أعظم
فما بين شرق الارض والغرب كلها ... مناد ينادي مـــن فصيح واعجم
يقـــول : أمـــير المؤمنين ظلمتنـــي ... باخذ لدينار ، ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرىء ، ظالم له ، ... ولا السفك منه ، ظالما ، ملء محجم
وليت فلم تشتم عليا ، ولم تخف ... بريا ، ولـــم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي ... فعلت ، فاضحى راضيا كل مسلم

وكان الشاعر عتبة بن شماس قد قال فيه (العقد الفريد لابن عبد ربه) :

ان أولى بالحق في كـــل حق ... ثـــم أحرى بـــأن يكون حقيقـــا
من أبوه عبد العزيز بن مروا ... ن ، ومن كان جـــده الفاروقا

وقال فيه جرير (العقد الفريد لابن عبد ربه) :

كـــم باليمامة من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ، ضعيف الصوت والنظر
ممـــن يعدك تكفي فقـــد والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كان بـــه ... خبلا من الجن او مسا من البشر
انا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة اذ كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر

وقال جرير فيه أيضا ، يرثيه (العقد الفريد لابن عبد ربه) :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرا عظيما ، فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله ، يا عمرا
فالشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

رحل عمر بن عبد العزيز ، وفي اسماع الناس تتردد كلمات كان قد خاطبهم بها :

« انكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، وان لكم معادا يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم جنة عرضها السموات والارض . الا واعلموا ان الامان غدا لمن يخاف اليوم ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباق ، وخوفا بأمان » .

وتحية للباحث المجيد الاستاذ الدكتور محمد عمارة ، اذ اتاح لنا هذه الفرصة الطيبة لنهل الشذى العطر من كتابه الذي اتى في حجم الماسة الثمينة وقدرها ، فما احوج المكتبة العربية الى مثل هذا الكتاب الجدي الرصين ، في وقت تغص فيه حلوق المطابع بكل صنوف الكتابات .

فوزي عطوي

فراشة الحرية

*

ادكار طرابلسي

احاول مرات عديدة ان أسالك
ويأخذني النسيان
حبيبتي الفراشة ، أين أنت ؟
هل سرقك الزمان ؟ .
حلم لم يدعني أنام ،
زهرة عانقتك ،
ليتها لم تكن .. ليتها تموت
لأرتاح ، وان كان في ذلك هذيان .
لو أدري أين أنت من الدهر
يا أيتها القرنفلة
لذهبت اليك راكضا ومعي الحقل .
حبيبتي لو تدرين ما ألم بي
لو تشعرين ما أشعر
لكنت اليوم أسعد انسان
أنا من يملك الحقل .
أتذكرين عندما زرعنا الحكايات ،
انتظري قليلا ريثما نحصدها كتبا ،
لربما أتى ذلك اليوم ، ربما .
أتدرين لو لم أكن أحلم الآن لما رايتك ابدأ .
... ومدفأة ونار ، وعود حطب ، وعجوز تخيط
ونحن بقربها نستمع الى أقاصيصها العتيقة
كطفلين صغيرين أتعبهما الركض في النهار
وتغلب عليهما الشوق للحكاية
وسرعان ما تأتي النهاية وتنطفىء النار ...
آه يا حبيبتي لو كان يوجد المزيد من الخشب
أنا أدري ،
الحياة تدعونا اليها لنلعب معا
لندغدغ آمالنا ، لنضحك ، لنفرح .
آه لو ان البكاء لم يولد لحبنا كان اليوم أكبر .
لا أدري لماذا السحب تعالت
ولا كذلك النهار وايضا تشتتت الكلمات
ولم يبق سوى القليل منها
وحتى بسمة واحدة على ثغر المساء
ولم ينته الجفاء
هذه هي الاحلام تذهب سدى مع الايام
وتبقى الذكريات .
حبيبتي لا أدري لماذا لقاؤنا قصير
ربما لا يمكننا ان ننظر لبعضنا أكثر
لو لم تكوني فراشة لطال أكثر
.. ومع كل ربيع وصيف قصة حب
وكلمات وبسمات ودموع ...
آه كم كنت جميلة قبل الخريف
يا من أحبها قلبي ، يا حرية في ثوب جميل
... في جسم فراشة .

بوزيدونيوس السوري

١٥٣ — ٥٠ ق٠م

بقلم يوسف اسعد داغر

* * *

بوزيدونيوس عالم سوري الاصل والمولد ، يوناني اللسان والتربية ، موسوعي الثقافة هو من اكبر وابرز علماء سوريا في القرن الاول قبل الميلاد . عيبه الاكبر انه لم يولد مسيحيا او مسلما فغمط حقه وخفت صيته . ومع ذلك فقد بلغ من سعة معارفه وتنوع تأليفه ان برز فيلسوفا رواقيا كبيرا ، ومؤرخا واسع الاحاطة ، ورحالة جوابة . ضرب في آفاق العالم الروماني شرقا وغربا ، وجغرافيا دقيق الملاحظة وفلكيا حاول القيام بمقاييس دقيقة لتحديد بعد الشمس عن الارض وتحديد حجمها ، كما حاول ان يحدد قطر الارض . فقد كتب والف في نواح عديدة كالعلوم الطبيعية والجغرافية والتاريخ الطبيعي والرياضيات وعلم الهيئة . فهو ابدا متعطش للمعرفة راغب في العلم ، متصيد له ، باذل له عن سعة . فقد احصى له المحققون اكثر من ٢٠ تأليفا .

ان رجلا من هذا الوزن ومن هذا الثقل تطلعه سوريا لهو حقيق بأن نحيي ذكراه ، وان نشيد عاليا بفضله وان تعقد له حلقات البحث والندوات ، وان يقيم له وطنه سوريا الانصبة التذكارية وان تبعث ذكراه وتنفض عن اسمه المغمور وعمله المغموط غبار النسيان . فتطلق اسمه على الاندية والمؤسسات الثقافية والعلمية وعلى شوارع المدن الكبرى فيها . فهو من هؤلاء العظام الذين جاء فيهم القول المأثور : ليس لنبي كرامة في وطنه . وهو قول ما انطبق يوما على شخص انطباقه على صاحبنا بوزيدونيوس السوري ، موضوع حديثنا .

بعد الذي رأينا من شأن هذا الرجل النابغة ليس من عجب قط ان يتعرض له المؤرخون والباحثون في الغرب بالدرس والتتبع والتمحيص ، فيعقدون حوله الابحاث المستفيضة ويظهرون للملأ العلمي ما كان له من شأن وشأو بعيدين في الحركة العلمية في عهده ، وان يترجم له الكثيرون باستفاضة فيكشفون لنا عن نواحي عبقريته .

بوزيدونيوس فيلسوف سوري من زعماء المدرسة الرواقية ومن اعلام حملتها البارزين . ولد في مدينة افاميا ، احدى عواصم سوريا الشمالية في عهد الدولة السلوقية . بناها سلقوس الظافر (نيكتور) على نهر العاصي الى الشمال من حماه عند انحداره غربا وضربها الفرس في عهد الملك كسرى السابع في القرن السابع للميلاد ، وجدد العرب بناءها ونكبت بهزة ارضية عنيفة في القرن الثاني عشر للميلاد قضت على معالم الحياة فيها . وتتلمذ يافعا على الفيلسوف فناتيوس . قام بعد دراسته بسلسلة من الاسفار والرحلات استغرقت سنوات ، باحثا ، منقبا . دارسا ، حملته تباعا الى اسبانيا فاستقر مدة في مدينة غاديس ، وافريقيا (تونس) ، وايطاليا ، وغاليا الجنوبية ، وليغوريا ، وصقلية ، وشواطىء البحر الادرياتيكي الشرقية ، واستقر نهائيا في جزيرة رودوس حيث كانت سبقته شهرته ، وفي رودوس انشأ مدرسة للفلسفة الرواقية فاجتذبت دروسه العديد من التلاميذ والمريدين فتحلقوا حوله يتلقفون تعليمه ودروسه . فهو يأتي في الدرجة الثانية بعد استاذه فناتيوس من حيث سعيه ، بالقلم واللسان ، لنشر مبادىء الفلسفة الرواقية ، كما تبلورت تعاليمها اذ ذاك ، في جميع انحاء العالم الروماني . فقامت بينه وبين كبار رجالات الدولة والعصر علاقات متينة ، فربطته صداقات بماريوس وروثيليوس روفوس . وبلغ من بعد شهرته ان جاء بمبيوس وشيشرون من روما ليستمعا الى دروسه . وقد قضى شيشرون نفسه سنة يدرس عليه ويستمع اليه . وقد ذكره في بعض تآليفه بكثير من الثناء والتقدير .

وبوزيدونيوس مؤلف خصب حفظ التاريخ لنا اسم اكثر من عشرين مؤلفا من مؤلفاته ضاعت جميعها ، ويبرز معها رياضيا وفلكيا اكثر منه فيلسوفا . وقد ترك لنا ابحاثا في النقد وفلسفة الرياضيات .

وبوزيدونيوس من العلماء القدامى الذين درسوا حركة المد والجزر في البحر وحاول ان يفسرها تفسيرا علميا . ومع ان معظم مؤلفاته فقد ولم يسلم لنا من اثره سوى بعض مقتطفات ، فهو يرى في حركة المد تأثيرا للقمر . فتأتي الحركة في فترات ثلاث : نصف نهارية ، واخرى نصف شهرية ، وثالثة سنوية . تتم الاولى عندما يكون القمر ارتفع ٣٠ درجة فوق البحر .

وبوزيدونيوس ، مؤرخ فقد وضع ، على ما يؤكدون : تاريخا ضخما يقع في ٥٢ كراسا ارخ فيه للفترة الواقعة بين سنة ١٤٦ ، وهي تاريخ سقوط قرطاجة في يد الرومان وهدمهم لها ، وسنة ٨٨ ق.م وقد حشا تاريخه بالكثير من المعلومات والفوائد .

اول من جاء على ذكر بوزيدونيوس ، المؤرخ اسكندر الافروذيسايي الذي عاش في مطلع القرن الثالث للميلاد . وقد تعرض كثيرون من علماء العصر الحديث له بالبحث والدرس . فقد جمع ج. بلايك آثاره الباقية في كتاب سماه : « آثار بوزيدونيوس الرودوسي » ظهر عام ١٨١٠ ، كذلك

أمي ..

ذات ليلة .. كانت أمي تتضرع الى السماء ليعيش ابنها غده ... وكانت القصيدة

عيناك ساهرتان - كالمصباح - في ليل العذاب
تتطلعان الى السماء وتنشجان لهول ما بي
ويداك ترتعشان من قلق ومن كدر المصاب
ما زلت أدرج في نعيمك هانئا غض الاهاب
أرضعتني طهر الشهامة والكرامة والشباب
وزرعت في شمائلا غراء تمطر كالسحاب
وبقيت لي وطنا أفيء اليه في زمن الصعاب
آه على لحظات عمر مر من غير اكتئاب
حيث الملاعب والصبى والورد في ثغر الكعاب
والعشق والغيد الحسان وعصر (هند) و (الرباب)
نلهو بما رسم الغرام وخط في آي الكتاب
لكن تغيرت النفوس وآل سعدي لانتحاب
لا تسأليني ذاك عهد مر من عمر الشباب
أماه ذا وطني يباح لمجرمين بلا حساب
وكذا يساق الى الرزايا والمهالك والتراب
أزرى بنا الدهر الخؤون وأجدبت خضر الروابي
وتلون الخدن الامين ولج دهري في عذابي
وتجهمت دنيا الرجال بحالك الزمن المرابي
واسود أفق أبيض وانهار مجد كالسراب
واساقطت شيم البطولة والرجولة والصحاب
لولاك ما ضحك الزمان وما تبسم ثغر كاب
لولاك ما بقيت لنا في العيش من حلو الرغاب
تبقين لي أملا ندي الغصن في دنيا اغترابي

بغداد — خالد الخزرجي

اثبتت آثاره في الجزء الثالث من مجموعة ظهرت بعنوان : « مختارات المؤرخين اليونان » ، التي نشرت عام ١٨٤٨ . وقد تعرض له بالبحث ثيوكور في كتابه الموسوم : «الاصول او الينابيع اليونانية لابحاث شيشرون الفلسفية». وقد عقد الكاتب الاميركي ادلشتين مقالا مسهبا حوله ، نشره في المجلة الفلسفية الامريكية في مجلدها ٥٧ الذي صدر عام ١٩٣٦ .

هذا هو مفكر وفيلسوف من بلادنا انجبته تربة سوريا الخصبة اردنا ان نحيي ذكره بهذا الحديث المختصر احياء لذكر خالدين من ابناء هذا الوطن .

يوسف اسعد داغر

لؤلؤة مزيفة

*

حسين علي محمد

*

الزقازيق — مصر



— ١ —

وجهك يغرس حربته البيضاء
في عيني عاشقك المهزوم !
كأسد مطعون
وظلك يرفع صوت النار — الشهوة
في قاعات السكر ..
وعربدة الاخوان المنكسرين
ينتصب الصدر كنافورة
يشرب كل الجمع — الحاضر
لبن « الخلق » ..
ولبن « أنتلوين » .
يفقد هذا الجمع — الفرد صفاته
يفنى في واحد
وأنا وحدي .. ظل مغبون
أراني بعضاً من طين
يتمرد في أيدي الصانع
يرفض أن يتشكل
حسب مزاج « السيد »
في لحظات التكوين

— ٢ —

قالت عيناك مساء :
ارفع كأسك
وارو القلب بمائك
ولتطرح أشجارك فلا ورياحين
لكن الزمن الفاشم اقعى
فاذا ما بين يدي دماء .. ودماء !

— ٣ —

قمرك يرفل في ثوب الدعة ،
وينقر شباكي في السحر ،
ويدعوني كي أصحو من غفله
أفتح شباكي
لا أجد القمر الواعد
أغلق شباكي ثانية
ويظل الارق جليس الليله
فأنــا ...
لم أحلم بالصدر الينبوع مساء
أو أضع
على نافذة الشباك الفله



فوجىء بكلامه مفاجأة كاملة . لم يكن في لحظة نفسية مؤاتية للقتال . واكتفى بالرد الصريح القاطع :

— نعم ؟ نعم ؟ اذا كنت تعني نقدي للنظام الذي تناصره ، فهذا رأيي . ولا اسمح لك بمناقشتي بهذه الطريقة . حر ، انا .

وغاص مثير الحادثة بشيء يشبه الذهول . لم يتوقع ان يسمع هذا الرد الحازم . لا سيما وان المخاطب كان في زيارة احد المحررين في جريدته .

ولعله توهم ان العصا التي يسوق بها الآخرين ، يمكن ان تخيف هذا المربد الوجه ، المتجهم الجبين ، المتحفز لاكثر من الرد .

لم يجد بدا من الاستدراك والايضاح ، فقال :

— انا لا اعني ذلك النظام . بل اعني هجومك الشخصي علينا ، في احدى المناسبات .

وبدا من ادارة الحوار الى هذه الوجهة الجديدة ، ان رئيس التحرير قد اسقط في يده . فهو يرى ان لا فائدة من الاصرار على التصنع والنفاق ، والتقنع وراء خزعبلات لا تجدي . ولم يستطع الكشف عن الدافع الحقيقي لهجومه المبطن بالغل . او هو لم يقو على ذلك .

وانفتحت امام المصاب في كرامة حضوره ، كوة صغيرة تطل منها حقيقة الموقف .

اما صديقه المحرر فقد لزم الصمت . ولم يتخذ جانب الدفاع عن صديقه . كأنما المشكلة لا تعنيه من قريب او بعيد .

ربما كان ضحية ظروفه الطاحنة . انه حجر بين شاقوفين . يخاف ان يخسر وظيفته او صديقه . وآثر ، على ما يبدو ، ان يخسر الصديق ، لا ان يخسر معاشه .

والا فكيف يستطيع متابعة علاقته باحدى العاهرات . وتصدر الموائد الممدودة الخوان في المطاعم . والظهور بالمظهر الانيق والثري امام الآخرين ؟ وفوق ذلك كله من ابي يأتي ، لامه المريضة ، بالدواء ، ولابيه العاجز بمصروفه اليومي ؟

جبن عن التدخل . واتخذ صفة المراقب المحايد ، في موقف لا يعترف بالتخاذل . لكن اذنه سجلت بقية الحوار .

— ولو يا استاذ ! ان من يتصدى للعمل العام ، لا يجوز له مقابلة الناس بهذه الطريقة . لا سيما وانت تظهر بمظهر الدفاع عن حرية الراي



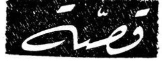
الى ابنتي دانه

بقلم عادل الاعور

في جريدتك . (ولم يقل له خديعة وتمويها على القراء !) .

ساد الصمت العاصف برهة ترقب . ثم توبع الحديث :

— تقول لي : كيف تسمح لنفسك بالمجيء الى عندنا . وانت تهاجمنا . واقول : انا لم اهاجمك . بل ، على العكس ، دافعت عنك في لقاء المحررين الاخير . (ولم يقل له : لقد غامرت في اسكات احد الذين



تناولوك بالهجوم والتجريح ، بطريقة عجبت نفسي من وقاحتها . وانتظرت منك الشكر فحسب . لا الهجوم !)

وتابع :

— اما اذا كان مكتبك يضيق بوجودي فاني اغادره على الفور . وسع الله « محلاتك » .

لم يند عنه ، رغم الحوار العاصف ، الغاضب ، اية شتيمة . او استفزاز شخصي . انه يقف على ارض رخوة ، كلها ضده . فقد تجاوز رئيس التحرير ، اللياقة المتعارف عليها في الاوساط الصحفية .

واحس الزائر ان مرجل الغضب الذي اثير في صدره ، لم يخمد تماما . وفي معادلة شخصية سريعة ، مع نفسه ، اكتفى بهذا القدر من الكلام .

انتظر ان يتدخل صديقه . فلم ينجده . ربما لانه وجد ان موقفه قوي ، لا يتطلب المساعدة . ولكنه لاحظ ، في غابة وجهه الكثيفة الغيوم ، مزيجا من الارتياح ومن الاحساس بالذنب ، في آن معا .

ومات في صدره شيء لا يعرف كنهه . ابحر به بعيدا عن واقعه ، وانتقل به الى حالة نفسية اخرى .

لقد تجمد الكلام على شفتيه . وران الصمت . بعد ان كان ، للحظات ، سيلا يجرف ، وابرا تخز . وانهار جدار بينه وبين خصمه ، فيما ارتفع جدار آخر ازاء صديقه ...

احس انه اصبح اكثر فهما لرئيس التحرير . فقد صارحه بما في صدره . وليس يهم ما تكون طبيعة هذه المصارحة . فيما احس انه يبتعد ، بشدة ، عن صديقه .

عشرات ..... المتبادلة بينهما كانت زائفة الود ، مفتعلة الحرارة . حاول مرارا ان يتخطى هذه المرحلة في علاقتهما : ان يكسرها ، او ان يزيدها تماسكا . وكان يتقلص على نفسه ، ويؤجل هذا التصرف . انه يجبن ، حينا ، عن المصارحة . لئلا

يأس وامل

لم أزل حيرى بوادي الظلمات	ويح نفسي من أفانين الامل
أدفن الاحزان في قبر الموات	أسكب الاشجان في شعر الغزل
قد سمعت الطير يشدو ويبين	ورأيت البدر نورا كاملا
وسمعت الليل يشكو في أنين	رغم أن الضوء يسري هائلا
قد سمعت الشاعر المسكين يشدو	في حنين وبكاء مستمر
ينظم الاشعار تدوي ثم تغدو	بعد حين ومضة لا تستقر
ليت شعري اي نفس ليس يرجو	كل أمن رغم تنكيل الزمن
يحفظ الله امرءا قد راح يسمو	فوق آفاق البرايا والفتن
قد شجاني ما يعانيه الاناس	من عذاب وشقاء ولغوب
لهف نفسي أي خير في انتكاس	أي جدوى عند دنيانا الكذوب
شفني الحزن الذي غش الورى	وأحال الكون عندي كالقتام
كلما جلت بعيني كي أرى	لم أجد الا ظلاما في ظلام
سوف ننسى ما شربنا من كؤوس	سوف ننسى ما لقينا من عناء
سوف ننسى ما فقدنا من شموس	كي نلاقي ما افتقدنا من ضياء
سوف نرسو فوق شط من رمال	سوف نلهو عند موسيقى المياه
سوف نحظى بشذى تلك الظلال	سوف نحيا بالاماني في الحياه
سوف نسمو فوق أوهام البرايا	حيث نحيا في هدوء وابتسام
حيث ننجو من ملمات المنايا	ونرى الدنيا وقد زال الظلام
سنظل العمر نشدو كالطيور	ونبيت الليل في نوم عميق
حيث لا وهم ولا قلب يثور	بل حياة كلها حب رقيق

عين شمس — مصر

جميلة العلايلي

يساء فهمه ، ليس الا . وخسارة صداقة ، مهما كانت ، تمضه وتقتل فيه بعض لذة العيش .

اوليست صداقة الزمالة ، اناء خزفيا او زجاجيا ، ان لم يعرف الطرفان مداراته ، انكسر . ولا سبيل الى التحامه من جديد ؟ في حين يعرف ، تماما ، ان الصداقة الاصيلة والحقيقية ، هي خدينة المصارحة ، والا فقدت مبرر استمرارها وديمومتها .

ويتعافى ، من صمته ، على يد رئيس التحرير تمتد اليه مصافحة معتذرة . ولم يعجب . ما دام يعلم انه لم يسيء اليه . والفى يده تمتد وتنبسط ، دون ان تقع في خطيئة الحقد ، فقد اعيد اليه اعتباره امام نفسه ، او صديقه على الاقل .

وتنحل عقدة لسان الصديق ، لاول مرة الآن ، فيقول :

— اعذره . انه ضحية سوء فهم. ويتضاحك وهو يضيف :

— بسيطه . اقعد . لا تذهب . ساطلب لك القهوة .

ولم يجب . بل لزم الصمت .

هل يكون الانسان على غير استعداد طبيعي لتقبل الخسارة ، في حين يتقدم الصفوف للمشاركة في الربح ؟

لقد اتخذ الصديق جانب الحيطة والحذر ، طيلة الدقائق السابقة ، لئلا يصيبه من المشكلة رذاذ مكروه . وها هو ، الآن ، يعرض خدماته في غير موضعها او وقتها .

لم يقل له شيئا . رفض قهوته ، بتهذيب ، وانصرف .

عادل الاعور



ألوان وألحان

شعر زكي قنصل — ٢٥٢ صفحة — طبع في دار « ميسلون » للطباعة والنشر بوانس ايرس — الارجنتين — سنة ١٩٧٨

ما قرأت ديوانا جديدا لأخي في العروبة والشعر ، الشاعر الملهم زكي قنصل الا رأيت فيه وثبات جديدة ، قصرت عن مجاراتها دواوينه السابقة ، وهذا هو شان الشعراء الخالدين ، الذي يضعون قدما في الارض ، وراسا في سماء الخلود والالهام .

وأشهد ان أخوي القنصلين (الياس وزكي) لم يزوداني بكتاب او ديوان لهما حتى اترك كل ما لدي من مقالات ومؤلفات وقصائد بدأت بنظمها ، وانصرف الى قراءة ما يكتبانه ، لان روحيهما العبقريتين تمليان عليهما ما ينظمان او يكتبان ، فتمتزج روحي بروحيهما لنصبح روحا واحدة ، ونقرأ معا ما ينظمان او يكتبان . وما ذلك الا لاننا — كما يخيل الي — رضعنا حب العروبة ، واللغة العربية ، والوحدة العربية الشاملة ، من ثدي مقدس واحد .

وأشهد ايضا ان الشعر لم يخب نوره في المهجر ، ولو لم يبق من شعرائه سوى اخي الشاعر القروي الخالد ، المقيم بين ظهرانينا الآن ، وأخوي الشاعرين المطبوعين المبدعين الياس وزكي قنصل ، المقيمين في الارجنتين ، لكفى ان يكون ذلك حافزا لنا الى رفع رؤوسنا عالية بهؤلاء الثلاثة وحدهم ، فكيف الحال ولدينا اضعاف اضعاف هذا العدد ، الذي سيزداد من الآن فصاعدا ، بعد افواج المهاجرين ، الذين حملتهم الحرب الاهلية اللبنانية الطاحنة على هجر وطنهم الجميل الفتان ، للاقامة في جميع بلدان العالم ، التي فتحت لهم صدرها ، والذين لن يلبث شوقهم الجامح الى وطنهم الذي غادروه مرغمين ، حتى يدفعهم الى الحنين اليه ، والتغزل بجماله ، ونظم أروع القصائد فيه ، كما فعل جميع الشعراء الذين هاجروا قبلهم .

ولأعد الآن الى ديوان « ألوان وألحان » ، الذي تشبث بلبي حتى قرأته كله ، وهذه هي ملحوظاتي عنه :

أعجبت كثيرا بمقدمته ، ونزلت عباراته عن الشعر الحديث بردا وسلاما على قلبي ، وقد اقتبستها لكتابي المخطوط « الشعر العربي الحديث المنثور » . فمنها قوله :

« لا يمكن للشعر ان يستغني عن الوزن والقافية ، ومن الجناية ان نشعل فيهما النار ، بحجة ان الموسيقى الداخلية تقوم مقامهما وتغني عنهما . ان الموسيقى الداخلية اسطورة لا تثبت للامتحان ، وفي يقيني انها على طريق الانلاس ، ان لم تكن قد افلست ، وانتهى امرها » .

« والحفاظ على مقومات الشعر لا يمنع من تنويع القوافي ، والتنقل بين الاوزان ، ولكن على ان تراعى شروط الذوق السليم ، ويواءم بين الانغام ، وتربط الخيوط بلباقة » .

« هل يجوز ان نستنفد طاقات القارىء في الطلاسم والاحاجي ، ثم نزعم اننا نكتب للعامة ؟ الشعر لا يعيش في الكهوف المظلمة ، بل هو في حاجة الى النور والهواء ، وانا افهم ان يتبرقع بنقاب شفاف ، فذلك أوقع في النفس وأنبه للذهن ، ولكني ضد « قبعات الاخفاء » ، وضد اساليب المشعوذين في استخراج الارانب من الاكمام » .

« وما اصدق من قال : لو كان الغموض شعراً ، لكان الصمت اعلى مراتب الشعر » .

وختم الشاعر مقدمته بقوله : « واذا بدا شيء من التناقض الفكري في شعري ، فمرده الى ان ظروفا خاصة تطرأ احيانا على بعض المفاهيم ، فتنقلها من حال الى حال ، او على بعض الوجوه ، فتفسير في الملامح وتعبث بالسمات . المهم في نظري ان يتحرك الشعر في اطار من الحرية والاصالة لا يشوبه وجل او خجل » . وانا أؤيده في رأيه الصحيح هذا كل التأييد .

ثم أورد الشاعر نبذا مما كتبه عنه عدد كبير من ادباء العالم العربي ، فذكر ما امتدحوه به ، وما هاجمه به فؤاد شاكر ، الذي لم يكتف بمهاجمته ، بل هاجم معه شعراء المهجر ، الذين لا يزالون يهتمون بالوزن والقافية ، وهذه جراة من الشاعر ، وظلم فادح من الناقد ، الذي جرد الشعر من الوزن والقافية ، واسماه شعرا . واعتمادا على تعريفه الشعر هذا ، يكون نثر المنفلوطي واحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعي شعرا ايضا .

اما قصيدته « رجعي » فهي من قمم قصائد الديوان ، وفيها خلاصة فلسفته في الحياة ، وفيها يقول :

بريت رقاب اعدائي ... بسيف غير ذي نصل
اذا حشدوا وسائلهم ... حشدت لهم معداتي
بفل سيوفهم صفحي ... وأقهرهم بيسماتي

وتليها قصيدة « الموسجة الخضراء » ، وهي من عيون الشعر العالمي الخالد ، وفيها روح انسانية سامية . وأرشحها للترجمة الى لغات العالم الحية . وقصيدته « احب جاري » لو لم يكن فيها سوى هذا البيت :

انـا الكثير باخواني فان ذهبوا ... عني ، فما انا في دنياي من احد

لكانت جديرة بأن تفتح لها ابواب الخلود . وجاء في قصيدته « الاديب » وصف صادق للاديب العربي حين قال عنه :

ألف الهم فلـو فارقه ... حل فيه لفراق الهم هم

واحسن حين ختمها بقوله :

ان مـا تهدمـه حزبيـة ... من حصون الود ، يبنيه القلم

وفي قصيدته « يا شام » دعوة حارة لمحاربة الاغتراب ، حين يقول :

قالوا : تغرب ، فارض الله واسعة ... والخير في الغرب موفور لراجيه
ان لم يلن مضجع الانسان في وطن ... فالهجر مـن علة الحرمان يشفيه
ما كان أسخفني لما استجبت لهم ... واغتر طـرفي بتزوير وتمويـه

وقد احسن ، في قصيدته « براعم الفجر » ، حين وصف مساوىء الامة العربية في هذا القرن المنحوس ، الذي نطحنا فادمانا ، بقوله :

نحن جيل الفناء نبني على الرمل ، فيهوي البناء اثر البناء
ندعي العلم ، وهو منا بريء ... أي علم يدعو الى البغضاء
وطنياتنـا معارض هـرج ... وبطولاتنا ملاقـي هـراء
قد زرعنا طريقنا بالضحايا ... وكتبنـا تاريخنـا بالدمـاء
لا تعيروا أسماعكم لدعاوانا ، فانا نعيش في الظلماء

ويحمل فيها على اليمين واليسار كليهما بقوله :

من يمين يسوقنا لهوان ... ويسار يقودنا لفنـاء

وفي قصيدته « تفاح لبنان » غزل احمر ، لكنه رائع ، جاء فيه :

نغوص في الليل يطوينا بجبته ... كاننـا في ضمير الليـل اسرار
للزهر مـن حولنا غمز ووشوشة ... وللنسائـم جـولات واسفـار
لا تغرك العذب ممنوع علي ، ولا ... يـرد كفـي عـن ... انذار

وقد اعجبني قوله في قصيدته « هواجس جندي » :

الثار ؟ ليس الثار غير خرافة   لولا وجود الجهل مات الثار

وابدع في قصيدته « في محراب العروبة » ، حين قال :

ان العروبة محراب نطوف بـه   سجدت لاسمك يا ربي بمحرابي

اما قصيدته « صلاة » ففيها تفاؤل وانفتاح على الدنيا ، وقد جاء فيها :

وتركت الشكوى لكل ضعيف   ووهبت البكاء للخنساء
ضرستني الارزاء مدا وجزرا   ثم قرت غوائل الارزاء
رضتها بالجلاد حينا ، وحينا   رضتها بابتسامة استعلاء
من يعش خائفا يمت كل يوم   يقهر الموت من يعش بالرجاء
عشت بابني ، وبابنه سوف يحيا   حلقات بدان من حواء

وقد كتبت في خاتمة هذه القصيدة : فيها ايمان بالله ، وقوة ، وامل ، وفال ، ورحابة صدر . وهي من قصائد القرن العشرين الخالدة .

وقال في قصيدته « روائع الشام » ابياته الرائعة الآتية :

وبح التجارة من يركب مطيتها   يركب مطية أكدار واهوال
شاكت فراشي ، غلا والله ما انعقدت   عيناي الا على هم وبلبال
وحجرتني ، فما الارقام في نظري   الا اراقم تسعى خلف اصلال

وفي قصيدته « أحب بني أمي » ، كان بيت القصيد فيها :

ومن يتسلح بالضلال ، فلا يقل   حسامي بكفي، بل حسامي في نحري

وقد اعجبني قوله عن الشعر الحديث :

يسمى عندهم شعرا جديدا   وارحمه فادعوه نعيبا

وحلق حين قال في رثائه الرائع لشفيق المعلوف ، حين قال :

يموت الحر من عطش وجوع   اذا ما القوت كلفه خنوعا
وقد يبدي الخضوع لذات دل   ولا يبدي لذي ناب خضوعا

وأبدع حين قال في قصيدته « ضلال الهوى » :

لا انقذ الله قلبي من وساوسه   لولا ضلال الهوى لم اعرف الله

اما قصيدته « منضد الحروف » فموضوعها طريف ، وابياتها دمها خفيف .

وظهر ألمه المبرح لنكبة لبنان الفادحة ، التي بدأت عام ١٩٧٥ ، ولا تزال مؤججة اللظى الى يومنا هذا ، اذ قال :

تبت يد مزقته الف طائفة   واطلقت بينها الاحقاد تشتجر
وحولت جنة الفردوس مقبرة   للحب ، يسرح فيها الموت والخطر
ليبرأ الدين مما باسمه ارتكبوا   ويبرأ الحق ممن باسمه اتجروا
الدين يدعو الى حب ومغفرة   أين الذين أحبوا ؟ أين من غفروا

وفي قصيدته « رسول الارز » هزني قوله :

لبنان في نظري نشيد خالد   عبق بانفاس الهوى والراح
وقصيدة صاغ الاله عقودها   من نخوة عربية وسماح
الضاد تجمعنا اذا انتسب الورى   وبواعث الافراح والاتراح

وقوله :

ولي زمان الطائفية ، وانطوى   علم عتا بمنافق ووقاح

وقوله :

انا ، وان كره الدخيل ، بقية   من عترة العربية الاقحاح
ورثت شبيبتنا خشونة خالد   وشيوخنا وطنية الجراح

ويا ليته قال : « بطولة » بدلا من « خشونة » ، التي نظلم « خالدا » ان وصفناه بها .

اما قصيدته « ساعي البريد » ففيها وصف رائع له ، وحنين شديد لوالدته في الوطن . وأنا أوصي كل قارىء ، لديه هذا الديوان النفيس ، بقراءة القصيدة كلها ، ليرى كيف يكمن السحر في البيان .

ومسك ختام قصائد الديوان معلقته الخالدة ، التي نظمها في ذكرى اربعين المتنبي بعد الالف ، والتي تقع في ٢٢٠ بيتا ، والتي جاء فيها :

يا شاعر الدهر ضيعنا حميتنا   واسود ما ابيض من تاريخنا الذهبي
هنا ، وهانت على الباغي كرامتنا   وأصبحت أرضنا نهبا لمنتهب

ووصف فيها الشعراء المحدثين بقوله :

هاموا بسفسطة الالغاز،واصطنعوا   للهزل والهذر تمثالا واكليلا
من برج بابل قد جاءت بضاعتهم   فانت تفهم منها غير ما قيلا
تحنو عليهم من النقاد شرذمة   تعلموا النقد تزميرا وتطبيلا

ثم قا ل ايضا :

عار علينا ـ ونحن الاكرمون أبا ـ   أن يصبح الشعر بوقا عند قراد

وفيها انصف شوقي ايضا كالمتنبي ، حين قال :

كلاكما كوكب للمجد مؤتلق   كلاكما علم في الشعر خفاق

وأبدع حين قارن المتنبي بسيف الدولة قائلا له :

ان كان أعطاك مما في يديه ، فقد   غمرته بعطايا قلبك الصابي
مضت هداياه ... اما ما بذلت له   فسوف يبقى لأحقاب وأحقاب

وقال عن سيف الدولة مخاطبا المتنبي ايضا :

لولاك لاندثر اسما ، وانطوى خبرا   فليس يخلد لولا الشعر جحجاح

وجاء فيها بيته الخالد :

قد يأكل الحر من صخر ، ويهضمه   اذا تابى على جانيه نفاح

وقبيل ختامها ، أجاد في وصف نكبة لبنان الاخيرة ، حين قال :

تناهشته نيوب الغدر ، واجتمعت   على بقاياه ذؤبان وعقبان
هذا الذي هدت الدنيا حضارته   لم يبق منه ومن ماضيه عنوان

ثم يخاطب لبنان قائلا :

لبنان ! جرحك في قلبي ، فما ذرفت   عيناك الا دما من مهجتي يكف
لكل قوم ، اذا ما قاتلوا ، هدف   الا اقتتالك لم يعرف له هدف

اما غزله الرقيق في فتاة احلامه (غلواء) ، واكثاره من ذكرها في شعره ، فيحملانني على ان اطلق عليه اسم « مجنون غلواء » ، كما اطلقوا على اسم (مجنون سلمى) ، وعلى قيس مجنون ليلى ، وعلى كثير مجنون عزة ، وصدق الشاعر الذي قال :

وكل الناس مجنون ، ولكن   على قدر الهوى كان الجنون

ولما كان وجه البدر الفتان ، لا يخلو من الكلف ، والورد الارج لا يخلو من الشوك ، واللؤلؤ والدر من الصدف ، فان ديوان « ألوان والحان » الرائع الخالد يحملني على ابداء الملحوظات الآتية :

في الديوان بعض الاخطاء المطبعية ، شأن جميع مطبوعاتنا العربية ، وبعض القصائد تخلو من ذكر التاريخ والبلد الذي نظمت فيه القصيدة . فنحن نطلب من الشاعر ، وهو في سن الستين غير ما نطلبه منه وهو في سن الاربعين .

ومما لا اوافقه عليه قوله : « لا يبتدي » بدلا من (لا يبتدىء) ، لان معنى (ابتدى) : ذهب الى البادية .

وقوله (انطفاء البدر) ، والصواب : أفوله ، لان الذي ينطفىء لا يعود الى الاشتعال ، كما يعود البدر الى الطلوع .

ويصف نفسه في قصيدة « يا شام » بقوله :

رجلاه في الطين يهوي في مزالقه   ونفسه في رحاب الافق تطويه
جار الزمان عليه في تقلبه   وصوحت لفحة الرمضاء واديه

وأنا اعجب كيف يتسرب اليأس الى نفس هذا الشاعر وحوله مثل هالة الالهام والخلود هذه ؟ وأتساءل كيف يرضى ان يجور الزمان عليه ، ولا يجور هو او يثور على الزمان ؟

وفي القصيدة نفسها يقصر المهموز فيقول (ظما) بدلا من (ظمأ) .

اما قوله :

لا يستثير أساه موت بارجة   وربما هاج صداح مآقيه

فان غرق الباخرة الخالية من الناس لا يستثير حزن احد غير ربانها ، وبحارتها ، وأسرهم ، وأصحابها .

اما قوله :

يا قلب هذي عدن في مفاتنها   وذاك رضوان يلقانا على الباب

فالصدر مضطرب الوزن والعجز من البحر البسيط .

وهنالك قصيدة موجهة الى شاعر العطر الضائع ، وفيها يبدو انها موجهة الى شخص اسمه (فريد) ، اما من هو (فريد) هذا ، فعلمه (في بطن الشاعر) كما يقولون .

وقد أخطأ حين قال في قصيدته « رسالة الحب » عن جبران :

وكيف يسبقنا من ليس يعرفنا الى اغتراف الطلا من نبعه العذب

بكسر ذال (عذب) والصواب تسكينها ، لان كلمة ماء عذب (المكسورة الذال) تعني الماء الذي يكثر فيه القذى والطحلب ، وهو عكس ما يريده الشاعر .

وفي قصيدته « يا رفيق الطريق » التي خاطب فيها المسمى (جوادا) لم يذكر لنا من هو جواد هذا ايضا .

هذا هو ديوان « الوان وألحان » ، الذي حاولت اعطاء صورة شاملة عنه ، والذي جعلني ناظمه الملهم أتمتع برحيق وحيه أياما وساعات طوالا .

محمد العدناني

بيروت : شارع الجامعة العربية
بناية الاسكندراني رقم ٣

* * *

جماعة تحت السور

تاليف رشيد الذوادي ـ (؟) صفحة ـ منشورات دار عطارد بتونس

أصدر الاديب رشيد الذوادي كتابا جديدا بعنوان « جماعة تحت السور » يقع هذا الكتاب في ٢١٤ صفحة ، احتوى على مقدمة (٣ صفحات) وعلى « اضاءة عن الادب التونسي الحديث » (١٧ صفحة) ، ثم على «جماعة تحت السور » (٦ صفحات) ، ثم على « دوريات أصدروها » (٩٤/٧٦) ، ثم على « شخصيات فنية خرجت من تحت السور » ، ثم على « دراسات : تخص عبد الرزاق كرباكة » ، ومحمد العريبي ، وعلي الدعاجي ، ومحمود بو رقيبة ، ومحمود بيرم التونسي ، وغيرهم .

ومن خلال جولة في هذا الكتاب تلمح ان الادب في نظر مؤلفه معاناة وتأمل وتحليل لاوضاع العصر ومشكلاته . وان الاديب الحق ليس كل من يحمل القلم ويخط سطورا على صفحات الزمن ، وانما هو المعبر عن المشاعر الصادقة والعقائدي الذي يحمل فكرة ، ومن يتألم ويشقى ليضيء على غيره .

ومن الآراء التي جاءت فيمقدمة كتابه : (لا بد ان يخوض الاديب المعركة لبقاء الاصلح) و (عملية الخلق تؤكد على الاديب ان يبادر بالتأمل في واقع عصره) و (عليه أن يفكر فيما يلمسه من تناقضات تأباها نفسية الاديب كمبدع وكمفكر وواع في أمته) و (الخلق اسهام في صنع الحياة) و (الاديب مسؤول مطالب بأن يتخلص من الترهات والاهتمامات الشخصية، هو لا يصل الى الرفعة والسمو الا اذا اندفع في سبيل صنع الحياة ، وتطهير الضمير) .

وفي « اضاءة عن الادب التونسي الحديث » ابرز رشيد الذوادي جل التيارات الفكرية والادبية التي ظهرت في بلادنا منذ عام ١٩٣٠ (تاريخ احتلال الجزائر) تحدث عن جيل خير الدين التونسي ، وعن جماعة (الرائد الرسمي التونسي) ، وعن عهد الحماية ، وعن الادباء المكافحين فيها ، وعن الوان ومضامين الادب التونسي ، وعن اهم فترات خصوبة هذا الادب (١٩١٤/١٩٥٦) ، وعن تيارات مرحلتي « الوعي الوطني » (١٩١٤/١٩٣٩) والكفاح التحريري (١٩٥٢/١٩٥٧) اذ بعامل هاتين المرحلتين تولد ادب تونسي ، يحمل افكارا تونسية ويعالج اوضاع الشعب وطموحاته .

اما عصر « جماعة تحت السور » (١٩١٤/١٩٥٢) فهو عصر مضطرب بالاحداث قضى الاستعمار فيه على معنويات الشعب التونسي ، وعلى حقوقه وعانت فيه : « جماعة تحت السور » جميع الازمات ، حز في نفوسهم ان تهدر حقوق الشعب والا يصان له شرف ، وان يضيق عليه الخناق ، فثاروا وكافحوا ، وتعرض بعضهم الى السجن والى النفي والتشريد والبطالة ، وحتى الى تعطيل صحيفته وانتاجه .

لقد تألم « جماعة تحت السور » وهم « الحساسون » لما لمحوا الفقر وامتلاء الشوارع بالمتسولين وبالمرضى وبالعاهرات ، وأحسوا بتدهور الوضع الاقتصادي ، الذي اقيم على الاستغلال وعلى انحطاط مستوى العيش ، وغلو الاسعار .

وقد كان لبعض هؤلاء وقفات جريئة ، في التعبير عن اصالة الشعب ، وقدراته الذاتية ويبرز الاديب رشيد الذوادي ، في كتابه مميزات ادب هذه الجماعة ، وجلساتهم وسهراتهم ومراحل نشاطهم في كل من :

ـ المجالس الاولى : (١٩١٤/١٩٢٩) .

ـ المجالس الثانية : (١٩٢٩/١٩٤٣) .

ـ المجالس الثالثة : (١٩٤٥/١٩٥٢) .

وعرفنا رشيد الذوادي في كتابه عن بداية بروز هذه الظاهرة في باب السويقة :(١) (١٩١٤) كظاهرة فنية ، على يد محمد المغيربي ، واحمد بطيخ ، ومحمد القادري ، وخميس العاتي ، وخميس ترنان ، والطاهر عبو ، ومونى الجبالي ، وسيمون اميال وغيرهم .

وعن المجالس الثانية التي انعقدت فيما بين اعوام : (١٩٢٩/١٩٤٣) في مقهى « سيدانة » او مقهى « تحت السور » والتي ابتدأت بالتحاق الشعراء بالموسيقيين ، في جلسات « تحت السور » ثم تبعهم الممثلون والصحافيون والقصاصون والنقاد ، ومن ابرز من كان يحضر هذه الجلسات : كرباكة ، والدعاجي ، والعبيدي ، والمهيدي ، وخريف ، والعروي ، ومحمود بو رقيبة ، وبيرم التونسي ، والهادي الجويني ، وعلي الجندوبي ، ومحمد بن فضيلة ، ومحمد المرزوقي ، ومحمود اصلان ، وعمر الغرايري .

اما المجالس الثالثة (١٩٤٥/١٩٥٢) فيقول عنها المؤلف انها تميزت بقصرها كانت تضم بعض الشعراء ، والصحافيين ، والممثلين ، والموسيقيين ، وتقع كل ليلة . اما في « مقهى خالي علي » أو في « مقهى الغربي » بنهج الكبدة بتونس .

ويلخص الكتاب مذهب هذه الجماعة ، فيما يلي :

ـ تضامنهم في الافراح والاتراح .

ـ تشابههم في المشاعر والاحاسيس .

ـ اتفاقهم على النقمة والتمرد .

ونصل مع المؤلف الى القسم الاخير من كتابه : « ادباء وصحافيون » للتعريف بدورهم في الحياة الاجتماعية والادبية ، وما كان لهم من فضل في ابراز الذاتية التونسية ، ومدى دفعهم لعجلة التطور الذهني ، في تلك الفترة التي كان الشعب التونسي يصارع مرارة البؤس والحرمان من ذلك الدخيل ويبتدىء بـ :

١ ـ عبد الرزاق كرباكة (١٩٠١/١٩٤٥) الاديب الشاعر الذي « مارس مختلف الفنون الادبية طيلة ربع قرن » .

٢ ـ علي الدعاجي (١٩٠٩/١٩٤٩) هذا الكاتب الصحفي الذي كان محبا : « للاسفار(٢) ومن الفنانين المؤمنين بفنهم الى حد التقديس ،

٣ ـ محمود بو رقيبة (١٩٠٨/١٩٥٦) هذا الشاعر الاديب والصحفي كان له دور كبير في اثراء الحياة الادبية ، وتأثير في تطور الاغنية التونسية .

٤ ـ محمد بن فضيلة (١٩١١/١٩٥٧) كان شاعرا بالعامية وداعية

من دعاة الادب الواقعي وممن ناضلوا بجانب الفقراء والمعذبين بوجه عام .

٥ ـ محمود بيرم التونسي (١٩٦١/١٨٨٣) وهذا الكاتب القدير ، والقصاص الخبير والزجال الشهير ، وكان من ابرز الكتاب الذين أحبوا الفن وماتوا في سبيل الفن .

٦ ـ زين العابدين السنوسي (١٩٦٥/١٩٠١) شب طموحا منذ الصغر ، وتعلق بميادين الاصلاح ، وهام بالادب والصحافة والتاريخ منذ نعومة اظفاره ، وكانت مجلة « العالم الادبي » التي كان يصدرها ملتقى لاقلام جماعة تحت السور ، وكان منطلقا لحركة ادبية تونسية صميمة(٣) .

٧ ـ علي الجندوبي (١٩٦٦/١٩٠٩) او شاوش الهيئة الاجتماعية ، كما كان يحلو له ان يلقب نفسه : « لم يحرز على شهادة ، ولا ظفر بزوجة كابناء الارض ، ولا بابناء ، ولا يبيت أن كل ما تحصل عليه هو كثرة صداقته للادباء ، والمطربين ، والمطربات » .

٨ ـ احمد خير الدين (١٩٦٧/١٩٠٦) هذا الكاتب الاديب كانت له عدة ميادين فنية تمثلت في الرواية والمسرحية والقصة وقرض الشعر وكتابة الاغاني(٤) .

٩ ـ مصطفى خريف (١٩٦٧/١٩٠٩) خريف الذي عاش بوهيمية وأحب حلقات « تحت السور » وواكب تاريخنا السياسي والفكري اكثر من اربعين سنة .

١٠ ـ محمد الصالح المهيدي (١٩٦٩/١٩٠٢) المهيدي مثقف بلا جدال ، ويعد من جماعة تحت السور المحرز على شهادتين وبالاضافة الى هذا فقد كان من الشبان العصاميين الذين برزوا بفضل تكوينهم الشخصي .

١١ ـ عبد العزيز العروي (١٩٧١/١٨٩٨) وهذا الصحفي اللامع قد ساهم مساهمة كبرى في توعية الجماهير الشعبية عن طريق الاذاعة ، وهو بحق صحفي الشعب ، بما كان له من سحر بيان وقدرة على حبك المواضيع ومعالجتها .

١٢ ـ الهادي العبيدي(٥) « يعد العبيدي من ابرز الصحفيين التونسيين في النصف الثاني من هذا القرن ، فقد مارس جميع الوان الكتابة الصحفية ، ومعظم مواضيع الصحفية الجادة تتناول قضايا الشعب وحرية الوطن ، وكفاح المجاهدين ، ونقد الاوضاع السياسية والاجتماعية والتبشير بالفجر الجديد » صفحة ١٩٩ .

١٣ ـ محمد المرزوقي ، و « تمكن المرزوقي ـ بفضل عصاميته ـ ان يصبح في ١٩٣٥ اصغر مؤلف تونسي في هذا القرن ، حيث نشر وعمره (١٩ سنة) كتيبا صغيرا قدمه له الطيب العنابي وعنوانه : « آراء وعقيدة ابي العلاء المعري » صفحة ٢٠٥ .

هذه رحلة مع المؤلف ليست مكتملة ، بل هي وقفة في الطريق المفتوح ، تبرز لك الملامح الاساسية « لعالم تحت السور » وتعد هذه الدراسة نقطة انطلاق لزيادة العناية بدراسة هذه الحقبة من تاريخ ادبنا التونسي الحديث .

---

(١) ـ شارع شعبي من شوارع عاصمة تونس .

(٢) له كتاب « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط » .
ومن المولعين باللهو والنكتة » .

(٣) ـ راجع « ادباء تونسيون » لرشيد الذوادي ط ٢ تونس عام ١٩٧٦ صفحات : (١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤) .

(٤) ـ لهذا الكاتب ديوان شعر وكتاب جمعت اغانيه .

(٥) ـ هو رئيس تحرير « الصباح » حاليا : اديب ذواقة وصحفي لامع اصدر جريدتين اسبوعيتين : « الصريح » و « الفرز ذو » .

تونس — **الحبيب هولة**

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ٢٥ ليرة لبنانية

●

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ١٠٠ ل.ل.

●

في الخارج العربي : ١٠٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

سائر الاقطار :

٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية : ١٠٠ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج ٣٠٠ ل.ل. او ١٠٠ دولار كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء انشرت أم لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

☎ الادارة : ٢٢٣٨١٩ — Dir. 223819
المنزل : ٢٢٥١٣٩ — Dle. 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨ـ١١

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب